(٦٤) سورة التغابن مدنية وآياتها ثماني عشرة

سورة التغابن من السور المدنية التي تُعنى بالتشريع ، ولكنّ جوّها جو السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الاسلامية .

● **تحدثت** السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وآثار قدرته ، ثم تناولت موضوع الانسان المعترف بربه والإنسان الكافر الجاحد بآلاء الله .

● **وضربت** الأمثال بالقرون الماضية والأمم الخالية ، التي كذبت رسل الله وما حلّ بهم من العذاب والدمار نتيجةً لكفرهم وعنادهم وضلالهم .

● **وأقسمت** السورة على أن البعث حقٌ لا بدَّ منه ، أقرَّ به المشركون أو أنكروه .

● **وأمرت** بطاعة الله وطاعة رسوله وحذّرت من الاعراض عن دعوة الله .

● **كما حذَّرت** من عداوة بعض الزوجات والأولاد ، فإنهم كثيراً ما يمنعون الإنسان عن الجهاد والهجرة .

● **وختمت** السورة بالأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه ، وحذرت من الشح والبخل ، فإن من صفات المؤمن الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، وهو شطر الجهاد في سبيل الله .

سورة التغابن

[٩٤٥] أخرج الترمذي والحاكم وصححاه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾(١) في قوم من أهل مكة أسلموا فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا المدينة فلما قدموا على رسول الله [ﷺ] رأوا الناس قد فقهوا فهمّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟﴾(٢) الآية.

[٩٤٦] وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة التغابن كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾(٣) نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ووقفوه فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق ويقيم فنزلت هذه الآية وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة.

[٩٤٧] وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾(٤) اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾(٥).

* * *

---

[٩٤٥] (١) سورة التغابن: الآية (١٤).
(٢) سورة التغابن: الآية (١٤).
[٩٤٦] (٣) سورة التغابن: الآية (١٤).
[٩٤٧] (٤) سورة آل عمران: الآية (١٠٢).
(٥) سورة التغابن: الآية (١٦).

سورة التغابن

ثمان عشرة آية مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١﴾

وجه التعلق بما قبلها ظاهر لما أن تلك السورة للمنافقين الكاذبين وهذه السورة للمنافقين الصادقين، وأيضًا تلك السورة مشتملة على بطالة أهل النفاق سرًّا وعلانية، وهذه السورة على ما هو التهديد البالغ لهم، وهو قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤] وأما الأول بالآخر فلأن في آخر تلك السورة التنبيه على الذكر والشكر كما مر، وفي أول هذه إشارة إلى أنهم إن أعرضوا عن الذكر والشكر قلنا: من الخلق قوم يواظبون على الذكر والشكر دائمًا، وهم الذين يسبحون، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ﴾ معناه إذا سبح لله ما في السموات وما في الأرض فله الملك وله الحمد، ولما كان له الملك فهو متصرف في ملكه والتصرف مفتقر إلى القدرة فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ وقال في (الكشاف): قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله تعالى وذلك لأن الملك في الحقيقة له لأنه مبدئ لكل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه، كذلك الحمد فإن أصول النعم وفروعها منه، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء، وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ قيل: معناه وهو على كل شيء أراده قدير، وقيل: قدير يفعل ما يشاء بقدر ما يشاء لا يزيد عليه ولا ينقص. وقد مر ذلك. **وفي الآية مباحث:**

الأول: أنه تعالى قال في الحديد: ﴿سَبَّحَ﴾ [الحديد: ١] والحشر والصف كذلك، وفي الجمعة والتغابن ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ فما الحكمة فيه؟ نقول: الجواب عنه قد تقدم.

البحث الثاني: قال في موضع: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحشر: ١] وفي موضع آخر ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحديد: ١] فما الحكمة فيه؟ قلنا: الحكمة لا بد منها، ولا نعلمها كما هي، لكن نقول: ما يخطر بالبال، وهو أن مجموع السموات والأرض شيء واحد، وهو عالم مؤلف من الأجسام الفلكية والعنصرية، ثم الأرض من هذا المجموع شيء والباقي منه شيء آخر، فقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بالنسبة إلى هذا الجزء من المجموع

وبالنسبة إلى ذلك الجزء منه كذلك، وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يقال: قال تعالى في بعض السور كذا وفي البعض هذا ليعلم أن هذا العالم الجسماني من وجه شيء واحد، ومن وجه شيئان بل أشياء كثيرة، والخلق في المجموع غير ما في هذا الجزء، وغير ما في ذلك أيضًا ولا يلزم من وجود الشيء في المجموع أن يوجد في كل جزء من أجزائه إلا بدليل منفصل، فقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ على سبيل المبالغة من جملة ذلك الدليل لما أنه يدل على تسبيح ما في السموات وعلى تسبيح ما في الأرض، كذلك بخلاف قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه تعالى خلق بني آدم مؤمنًا وكافرًا، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمنًا وكافرًا، وقال عطاء: إنه يريد فمنكم مصدق، ومنكم جاحد، وقال الضحاك: مؤمن في العلانية كافر في السر كالمنافق، وكافر في العلانية مؤمن في السر كعمار بن ياسر، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] وقال الزجاج: فمنكم كافر بأنه تعالى خلقه، وهو من أهل الطبائع والدهرية، ومنكم مؤمن بأنه تعالى خلقه كما قال: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٧، ١٨] وقال: ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ [الكهف: ٣٧] وقال أبو إسحاق: خلقكم في بطون أمهاتكم كفارًا ومؤمنين، وجاء في بعض التفاسير أن يحيى خلق في بطن أمه مؤمنًا، وفرعون خلق في بطن أمه كافرًا، دل عليه قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي عالم بكفركم وإيمانكم اللذين من أعمالكم، والمعنى أنه تعالى تفضل عليكم بأصل النعم التي هي الخلق فانظروا النظر الصحيح وكونوا بأجمعكم عبادًا شاكرين، فما فعلتم مع تمكنكم بل تفرقتم فرقًا فمنكم كافر ومنكم مؤمن وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالإرادة القديمة على وفق الحكمة، ومنهم من قال: بالحق، أي للحق وهو البعث، وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أحسن أي أتقن وأحكم على وجه لا يوجد بذلك الوجه في الغير، وكيف يوجد وقد وجد في أنفسهم من القوى الدالة على وحدانية الله تعالى وربوبيته دلالة مخصوصة لحسن هذه الصورة، وثانيهما: أن نصرف الحسن إلى حسن المنظر، فإن من نظر في قد الإنسان وقامته وبالنسبة بين أعضائه فقد علم أن صورته أحسن صورة وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي البعث وإنما أضافه إلى نفسه لأنه هو النهاية في خلقهم والمقصود منه، ثم قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ لأنه لا يلزم من خلق الشيء أن يكون مصورًا بالصورة، ولا يلزم

من الصورة أن تكون على أحسن الصور، ثم قال: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع ليس إلا له، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ نبه بعلمه ما في السموات والأرض، ثم بعلمه ما يُسِرُّه العباد وما يعلنونه، ثم بعلمه ما في الصدور من الكليات والجزئيات على أنه لا يخفى عليه شيء لما أنه تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ألبتة أزلاً وأبدًا، وفي الآية مباحث:

الأول: أنه تعالى حكيم، وقد سبق في علمه أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر والإصرار عليه، فأي حكمة دعته إلى خلقهم؟ نقول: إذا علمنا أنه تعالى حكيم، علمنا أن أفعاله كلها على وفق الحكمة، وخلق هذه الطائفة فعله، فيكون على وفق الحكمة، ولا يلزم من عدم علمنا بذلك أن لا يكون كذلك بل اللازم أن يكون خلقهم على وفق الحكمة.

الثاني: قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وقد كان من أفراد هذا النوع من كان مشوه الصورة سمج الخلقة؟ نقول: لا سماجة ثمة لكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب فانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطًا بينًا لا يظهر حسنه، وإلا فهو داخل في حيز الحسن غير خارج عن حده.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يوهم الانتقال من جانب إلى جانب، وذلك لا يمكن إلا أن يكون الله في جانب، فكيف هو؟ قلت: ذلك الوهم بالنسبة إلينا وإلى زماننا لا بالنسبة إلى ما يكون في نفس الأمر، فإن نفس الأمر بمعزل عن حقيقة الانتقال من جانب إلى جانب إذا كان المنتقل إليه منزهًا عن الجانب وعن الجهة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾

اعلم أن قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ خطاب لكفار مكة وذلك إشارة إلى الويل الذي ذاقوه في الدنيا وإلى ما أعد لهم من العذاب في الآخرة. فقوله: ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي شدة أمرهم مثل قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[الدخان: ٤٩] وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ﴾ أي بأن الشأن والحديث أنكروا أن يكون الرسول بشرًا. ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجرًا فكفروا وتولوا، وكفروا بالرسل وأعرضوا واستغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم من الأزل، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ من جملة ما سبق، والحميد بمعنى المحمود أي المستحق للحمد بذاته ويكون بمعنى الحامد، وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال في (الكشاف): الزَعْم ادعاء العلم، ومنه قوله ﷺ: «زَعَمُوا

مَطِيَّةَ الْكَذِبِ» (١) وعن شريح: لكل شيء كنية وكنية، الكذب زعموا، ويتعدى إلى مفعولين، تعدى العلم، قال الشاعر:

وَلَـمْ أَزْعُـمْـكَ عَـنْ ذَلِـكَ مَـعْـزُولاً

والذين كفروا هم أهل مكة ﴿ بَلَىٰ﴾ إثبات لما بعد أن وهو البعث، وقيل: قوله تعالى: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ يحتمل أن يكون تعليمًا للرسول ﷺ، أي يعلمه القسم تأكيدًا لما كان يخبر عن البعث وكذلك جميع القسم في القرآن وقوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي لا يصرفه صارف، وقيل: إن أمر البعث على الله يسير، لأنهم أنكروا البعث بعد أن صاروا ترابًا، فأخبر أن إعادتهم أهون في العقول من إنشائهم. **وفي الآية مباحث:**

الأول: قوله: ﴿ فَكَفَرُوا۟﴾ يتضمن قوله: ﴿ وَتَوَلَّوا۟﴾ فما الحاجة إلى ذكره؟ نقول: إنهم كفروا وقالوا: ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ وهذا في معنى الإنكار والإعراض بالكلية، وذلك هو التولي، فكأنهم كفروا وقالوا قولاً يدل على التولي، ولهذا قال: ﴿ فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾.

الثاني: قوله: ﴿ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ يوهم وجود التولي والاستغناء معًا، والله تعالى لم يزل غنيًّا، قال في (الكشاف): معناه أنه ظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان، ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك.

الثالث: كيف يفيد القسم في إخباره عن البعث وهم قد أنكروا رسالته. نقول: إنهم وإن أنكروا الرسالة لكنهم يعتقدون أنه يعتقد ربه اعتقادًا لا مزيد عليه فيعلمون أنه لا يقدم على القسم بربه إلا وأن يكون صدق هذا الإخبار أظهر من الشمس عنده وفي اعتقاده، والفائدة في الإخبار مع القسم ليس إلا هذا، ثم إنه أكد الخبر باللام والنون فكأنه قسم بعد قسم.

ولما بالغ في الإخبار عن البعث والاعتراف بالبعث من لوازم الإيمان قال:

قوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

قوله: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟﴾ يجوز أن يكون صلة لما تقدم؛ لأنه تعالى لما ذكر ما نزل من العقوبة بالأمم

(١) لم أجده بهذا اللفظ وإنما جاء بلفظ (بئس مطية الرجل زعموا) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد) (٢/ ٢٣١) حديث رقم (٧٦٢) وأبو داود في كتاب (الأدب) باب (في قول الرجل زعموا) (٤/ ٢١١٨) حديث رقم (٤٩٧٢) وأحمد في (مسنده) (٥/ ٤٠١) جميعا من طريق الأوزاعي... به، وأورده الشيخ الألباني في (الصحيحة) (٢) حديث رقم (٨٦٦).

الماضية، وذلك لكفرهم بالله وتكذيب الرسل قال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ أنتم ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لئلا ينزل بكم ما نزل بهم من العقوبة ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ وهو القرآن فإنه يهتدى به في الشبهات كما يهتدى بالنور في الظلمات، وإنما ذكر النور الذي هو القرآن لما أنه مشتمل على الدلالات الظاهرة على البعث، ثم ذكر في (الكشاف) أنه عنى برسوله والنور محمدًا ﷺ والقرآن ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي بما تسرون وما تعلنون فراقبوه وخافوه في الحالين جميعًا وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ يريد به يوم القيامة جمع فيه أهل السموات وأهل الأرض، و﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ والتغابن تفاعل من الغبن في المجازاة والتجارات، يقال: غبنه يغبنه غبنًا إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قومًا في النار يعذبون وقومًا في الجنة يتنعمون، وقيل: هو يوم يغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، وأهل الهدى أهل الضلالة، وأهل الإيمان أهل الكفر، فلا غبن أبين من هذا، وفي الجملة فالغبن في البيع والشراء وقد ذكر تعالى في حق الكافرين أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى، ثم ذكر أنهم ما ربحت تجارتهم ودل المؤمنين على تجارة رابحة، فقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾[الصف: ١٠] الآية، وذكر أنهم باعوا أنفسهم بالجنة فخسرت صفقة الكفار وربحت صفقة المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ يؤمن بالله على ما جاءت به الرسل من الحشر والنشر والجنة والنار وغير ذلك، ويعمل صالحًا أي يعمل في إيمانه صالحًا إلى أن يموت، قرئ (يَجْمَعُكُم ويُكفِّر ويُدْخِل) بالياء والنون، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي بوحدانية الله تعالى وبقدرته ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بآياته الدالة على البعث ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ **ثم في الآية مباحث:**

الأول: قال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بطريق الإضافة، ولم يقل: ونوره الذي أنزلنا بطريق الإضافة مع أن النور هاهنا هو القرآن والقرآن كلامه ومضاف إليه؟ نقول: الألف واللام في النور بمعنى الإضافة كأنه قال: ورسوله ونوره الذي أنزلنا.

الثاني: بم انتصب الظرف؟ نقول: قال الزجاج: بقوله: ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾[التغابن: ٧] وفي (الكشاف) بقوله: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾[التغابن: ٧] أو بخبير لما فيه من معنى الوعيد. كأنه قيل: والله معاقبكم يوم يجمعكم أو بإضمار اذكر.

الثالث: قال تعالى في الإيمان: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بلفظ المستقبل، وفي الكفر قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بلفظ الماضي، فنقول: تقدير الكلام: ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار.

الرابع: قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ﴾ بلفظ الواحد و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ بلفظ الجمع، نقول: ذلك بحسب اللفظ، وهذا بحسب المعنى.

الخامس: ما الحكمة في قوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ وذلك بئس المصير فنقول: ذلك وإن كان في معناه فلا يدل عليه بطريق التصريح فالتصريح مما يؤكده.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمر الله قاله الحسن، وقيل: بتقدير الله وقضائه، وقيل: بإرادة الله تعالى ومشيئته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بعلمه وقضائه وقوله تعالى: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي عند المصيبة أو عند الموت أو المرض أو الفقر أو القحط، ونحو ذلك فيعلم أنها من الله تعالى فيسلم لقضاء الله تعالى ويسترجع، فذلك قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي للتسليم لأمر الله، ونظيره قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٦، ١٥٧] ، قال أهل المعاني: يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء، وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما يهد قلبه إلى ما يحب ويرضى، وقرئ (نهد قلبه) بالنون، وعن عكرمة (يُهْدَ قَلْبُهُ) بفتح الدال وضم الياء، وقرئ (يَهْدَأْ) قال الزجاج: هدأ قلبه يهدأ إذا سكن، والقلب بالرفع والنصب ووجه النصب أن يكون مثل ﴿مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[البقرة: ١٣٠] ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى اطمئنان القلب عند المصيبة، وقيل: عليم بتصديق من صدق رسوله فمن صدقه فقد هدى قلبه: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما جاء به من عند الله يعني هونوا المصائب والنوازل واتبعوا الأوامر الصادرة من الله تعالى، ومن الرسول فيما دعاكم إليه.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهر والبيان البائن، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يحتمل أن يكون هذا من جملة ما تقدم من الأوصاف الحميدة لحضرة الله تعالى من قوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١] فإن من كان موصوفًا بهذه الصفات ونحوها: فهو الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود إلا هو ولا مقصود إلا هو عليه التوكل في كل باب، وإليه المرجع والمآب، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بيان أن المؤمن لا يعتمد إلا عليه، ولا يتقوى إلا به لما أنه يعتقد أن القادر بالحقيقة ليس إلا هو، وقال في (الكشاف): هذا بعث لرسول الله ﷺ على التوكل عليه والتقوي به في أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه، فإن قيل: كيف يتعلق ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بما قبله ويتصل به؟ نقول: يتعلق بقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[التغابن: ٨] لما أن من يؤمن بالله فيصدقه يعلم ألا تصيبه مصيبة إلا بإذن الله.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ

أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قال الكلبي: كان الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به بنوه وزوجته فقالوا: أنت تذهب وتذرنا ضائعين فمنهم من يطيع أهله ويقيم فحذرهم الله طاعة نسائهم وأولادهم، ومنهم من لا يطيع ويقول: أما والله لو لم نهاجر ويجمع الله بيننا وبينكم في دار الهجرة لا ننفعكم شيئًا أبدًا، فلما جمع الله بينهم أمرهم أن ينفقوا ويحسنوا ويتفضلوا، وقال أبو مسلم الخراساني: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان أهله وولده يثبطونه عن الهجرة والجهاد، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية، فقال: هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا المدينة فلم يدعهم أزواجهم وأولادهم فهو قوله: عدوًّا لكم فاحذروهم أن تطيعوا وتدعوا الهجرة، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟﴾ قال هو أن الرجل من هؤلاء إذا هاجر ورأى الناس قد سبقوا بالهجرة وفقهوا في الدين همَّ أن يعاقب زوجته وولده الذين منعوه الهجرة وإن لحقوا به في دار الهجرة لم ينفق عليهم، ولم يصبهم بخير فنزل: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟﴾ الآية، يعني أن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم، ينهون عن الإسلام ويثبطون عنه وهم من الكفار فاحذروهم، فظهر أن هذه العداوة إنما هي للكفر والنهي عن الإيمان، ولا تكون بين المؤمنين فأزواجهم وأولادهم المؤمنون لا يكونون عدوًّا لهم، وفي هؤلاء الأزواج والأولاد الذين منعوا عن الهجرة نزل: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تطيعوهم في معصية الله تعالى وفتنة أي بلاء وشغل عن الآخرة، وقيل: أعلم الله تعالى أن الأموال والأولاد من جميع ما يقع بهم في الفتنة وهذا عام يعم جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه وباشر الفعل الحرام لأجله، كغصب مال الغير وغيره: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي جزيل، وهو الجنة أخبر أن عنده أجرًا عظيمًا ليتحملوا المؤونة العظيمة، والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم. وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ قال مقاتل: أي ما أطقتم يجتهد المؤمن في تقوى الله ما استطاع، قال قتادة: نسخت هذه الآية قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ومنهم من طعن فيه وقال: لا يصح لأن قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ لا يراد به الاتقاء فيما لا يستطيعون لأنه فوق الطاقة والاستطاعة، وقوله: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي لله ولرسوله ولكتابه وقيل: لما أمركم الله ورسوله به ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ الله فيما يأمركم ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ من أموالكم في حق الله خيرًا لأنفسكم، والنصب بقوله: ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ كأنه قيل: وقدموا خيرًا لأنفسكم، وهو كقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الشح: هو البخل، وإنه يعم المال وغيره،

يقال: فلان شحيح بالمال وشحيح بالجاه وشحيح بالمعروف، وقيل: يوق ظلم نفسه فالشح هو الظلم، ومن كان بمعزل عن الشح فذلك من أهل الفلاح فإن قيل: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، يدل على أن الأموال والأولاد كلها من الأعداء و﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يدل على أن بعضهم من الأعداء دون البعض، فنقول: هذا في حيز المنع فإنه لا يلزم أن يكون البعض من المجموع الذي مر ذكره من الأولاد يعني من الأولاد من يمنع ومنهم من لا يمنع، فيكون البعض منهم عدوًّا دون البعض.

قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي إن تنفقوا في طاعة الله متقاربين إليه يجزكم بالضعف لما أنه شكور يحب المتقربين إلى حضرته حليم لا يعجل بالعقوبة غفور يغفر لكم، والقرض الحسن عند بعضهم هو التصدق من الحلال، وقيل: هو التصدق بطيبة نفسه، والقرض هو الذي يرجى مثله وهو الثواب مثل الإنفاق في سبيل الله، وقال في (الكشاف): ذكر القرض تلطف في الاستدعاء وقوله: ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ أي يكتب لكم بالواحدة عشرة وسبعمائة إلى ما شاء من الزيادة وقرئ (يُضَعِّفْهُ) ﴿شَكُورٌ﴾ مجاز أي يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب وكذلك حليم يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء فلا يعاجلكم بالعذاب مع كثرة ذنوبكم، ثم لقائل أن يقول: هذه الأفعال مفتقرة إلى العلم والقدرة، والله تعالى ذكر العلم دون القدرة فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، فنقول قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يدل على القدرة من عز إذا غلب و ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ على الحكمة، وقيل: العزيز الذي لا يعجزه شيء، والحكيم الذي لا يلحقه الخطأ في التدبير، والله تعالى كذلك فيكون عالمًا قادرًا حكيمًا جل ثناؤه وعظم كبرياؤه، والله أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وخاتم النبيين سيدنا محمد وآله وسلم تسليمًا كثيرًا.

سورة التَّغَابُن

مدنيَّةٌ في قول الأكثرين. وقال الضحاك: مَكِّيَّة. وقال الكلبي: هي مكية ومدنية[١].

وهي ثماني عشرة آية. وعن ابن عباس أن سورة التغابن نزلت بمكة، إلا آياتٍ من آخرها نزلت بالمدينة في عوف بن مالكٍ الأشْجَعي، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاءَ أهله وولده، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ إلى آخر السورة[٢].

وعن عبد الله بن عمرو[٣] قال: قال النبيُّ ﷺ: «ما من مولود يولدُ إلَّا وفي تشابيك رأسه مكتوبٌ خمسُ آيات من فاتحة سورة التغابن»[٤].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾

تقدَّم في غير موضع[٥]

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠.

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ (٩٠٢)، وسيذكره المصنف أيضاً عند تفسير الآية المذكورة.

(٣) في النسخ: عبد الله بن عمر، والتصويب من المصادر الآتية.

(٤) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/ ٨١ - ٨٢، والطبراني في مسند الشاميين (٩٠)، وابن الجوزي في الموضوعات (٣١٦) وفي إسناده الوليد بن الوليد العنسي؛ قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به فيما يروي. وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع. وقال ابن كثير في تفسيره ٨/ ١٣٥ : غريب جداً، بل منكر.

وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٤٤٥ عن عبد الله بن عمرو موقوفاً. قال ابن عرَّاق في تنزيه الشريعة ١/١٩٦ : وهو أشبه .اهـ. وجاء عند الطبراني: خمس آيات من سورة التغابن، دون لفظة: فاتحة.

(٥) ١/ ٣٣٨ - ٣٣٩، ١٣/ ٨٩، ٢٠/ ٢٣٥.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾

قال ابن عباس: إن الله خلق بني آدمَ مؤمناً وكافراً، ويُعيدهم في[١] القيامة مؤمناً وكافراً.

وروى أبو سعيدٍ الخُدْريُّ قال: خَطَبَنا النبيُّ ﷺ عَشِيَّةً، فذكر شيئاً مما يكون فقال: «يولد الناس على طبقات شتَّى: يولد الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت مؤمناً، ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً، ويولد الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت كافراً، ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت مؤمناً»[٢].

وقال ابن مسعود: قال النبيُّ ﷺ: «خلق الله فرعونَ في بطن أمه كافراً، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مومناً»[٣].

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود: «وإن أحدكم لَيعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ أو باع، فيسبِق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلُها. وإن أحدكم لَيعمل بعمل أهل النار حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعُ أو باع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلُها». خرَّجه البخاريُّ، والترمذيُّ وليس فيه ذكر الباع[٤].

---

(١) بعدها في (م): يوم. وقول ابن عباس في الوسيط ٤/ ٣٠٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٥٢ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٢١ .

(٢) سلف ١٦/ ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥٤٣)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٢٢١ ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠١٩). وفي إسناده أبو هلال الراسبي.

قال النسائي: ليس بالقوي. وقال أحمد بن حنبل: يحتمل في حديثه إلا أنه يخالف في قتادة وهو مضطرب الحديث. قاله الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب ٣/ ٥٧٧ . وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٤٩٨ ، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٢٤٨)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠٢١) وفيه نصر بن طريف، قال الذهبي في الميزان ٤/ ٢٥١ : قال أحمد: لا يكتب حديثه، وقال النسائي وغيره: متروك. وقال يحيى: من المعروفين بوضع الحديث.

(٤) صحيح البخاري (٦٥٩٤) وسنن الترمذي (٢١٣٧)، وسلف ١/ ٢٩٦ .

وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد السَّاعديِّ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل لَيعمل عمل أهل الجنة فيما يَبْدُو للناس، وهو من أهل النار. وإن الرجل لَيعمل عمل أهل النار فيما يَبْدُو للناس، وهو من أهل الجنة»(١).

قال علماؤنا: والمعنى: تعلَّق العلم الأزليُّ بكلِّ معلوم، فيَجري ما علم وأراد وحكم. فقد يريد إيمانَ شخص على عموم الأحوال، وقد يريده إلى وقت معلوم. وكذلك الكفر.

وقيل في الكلام محذوف: فمنكم مؤمنٌ ومنكم كافر ومنكم فاسق، فحذف لِمَا في الكلام من الدَّلالة عليه. قاله الحسن. وقال غيره: لا حذف فيه؛ لأن المقصود [به] ذكرُ الطرفين(٢). وقال جماعة من أهل العلم: إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا. قالوا: وتمام الكلام: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾. ثم وصفهم فقال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥] الآية. قالوا: فالله خلقهم، والمَشْيُ فعلُهم(٣). واختاره الحسين بن الفضل، قال: لو خلقهم مؤمنين وكافرين، لَمَا وصفهم بفعلهم في قوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾. واحتجُّوا بقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مولود يولد على الفِطرة، فأبَوَاه يُهوِّدانِه ويُنَصِّرانِه ويُمَجِّسانِه» الحديث. وقد مضى في «الروم»(٤) مستوفًى.

قال الضحاك: فمنكم كافرٌ في السِّرِّ مؤمنٌ في العلانية؛ كالمنافق، ومنكم مؤمنٌ في السِّر كافرٌ في العلانية؛ كعَمَّار وذَوِيه(٥). وقال عطاء بن أبي رَبَاح: فمنكم كافر

---

(١) صحيح مسلم (١١٢) كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه. وهو عند أحمد (٢٢٨١٣)، والبخاري (٢٨٩٨) مطول.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢١ وما بين حاصرتين منه.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٥٢.

(٤) ١٦/ ٤٢٢. وأخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨): (٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) تفسير الرازي ٣٠/ ٢١.

بالله مؤمنٌ بالكواكب، ومنكم مؤمنٌ بالله كافرٌ بالكواكب، يعني في شأن الأنواء[١].

وقال الزجاج ـ وهو أحسن الأقوال، والذي عليه الأئمةُ والجمهور من الأمة ـ : إن الله خلق الكافر، وكُفْرُه فِعْلٌ له وكسب، مع أن الله خالق الكفر. وخَلَق المؤمن، وإيمانُهُ فعلٌ له وكسب، مع أن الله خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خَلْق الله إياه؛ لأن الله تعالى قَدَّر ذلك عليه وعَلِمَه منه. ولا يجوز أن يوجد من كلٍّ واحد منهما غيرُ الذي قدَّر عليه وعَلِمه منه؛ لأن وجود خلاف المقدور عَجْزٌ، ووجود خلاف المعلوم جَهْلٌ، ولا يَلِيقان بالله تعالى. وفي هذا سلامةٌ من الجبر والقَدَر[٢]، كما قال الشاعر:

يـا نـاظـراً فـي الـدِّيـن مـا الأمْـرُ   لا قَــدَرٌ صــحَّ ولا جَــبْــرُ[٣]

وقال سِيلان: قَدِم أعرابيٌّ البصرة فقيل له: ما تقول في القَدَر؟ فقال: أمرٌ تغالت فيه الظُّنون، واختلف فيه المختلفون؛ فالواجبُ أن نَرُدَّ ما أشكل علينا من حكمه إلى ما سبق من علمه.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ تقدَّم في غير موضع[٤]، أي: خلقها حقًّا يقيناً لا ريب فيه. وقيل: الباء بمعنى اللام، أي: خلقهما[٥] للحق، وهو أن

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٣١٨، وزاد المسير ٨/ ٢٨٠ - ٢٨١، والأنواء جمع نوء وهو النجم مال للغروب، أو سقوط النجم في المغرب مع الفجر، وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق. القاموس (ناء).

(٢) ذكر نحو هذا الكلام البغوي في تفسيره ٤/ ٣٥٢ ولم ينسبه.

(٣) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢/ ٢٥١.

(٤) ٨/ ٣١٣، ٤٢٩.

(٥) في (د) و(ق) و (م): أي خلقها.

يَجْزِيَ الذين أساؤوا بما عمِلوا، ويجزيَ الذين أحسنوا بالحُسْنَى .﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يعني آدمَ عليه السلام، خلقه بيده كرامةً له. قاله مقاتل. الثاني: جميع الخلائق[1]. وقد مضى معنى التصوير[2]، وأنه التخطيط والتشكيل.

فإن قيل: كيف أحسن صورهم؟ قيل له: جعلهم أحسن الحيوان كلِّه وأبهاه صورةً؛ بدليل أن الإنسان لا يتمنَّى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصُّوَر. ومِن حُسْن صورته أنه خُلِق منتصِباً غيرَ مُنْكَبٍّ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3] [التين: ٤] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجِع، فيجازي كلًّا بعلمه.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾

تقدَّم في غير موضع. فهو عالمُ الغيبِ والشهادة، لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

الخطاب لقريش، أي: ألم يأتكم خبر كفار الأمم الماضية .﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: عوقبوا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجِع. وقد تقدَّم[4].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا العذابُ لهم بكفرهم بالرسل تأتيهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢١ .

(٢) ٢٠/ ٣٩٣ .

(٣) الكشاف ٤/ ١١٣ .

(٤) ١/ ٣٠١ .

أي: بالدَّلائل الواضحة. ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾: أنكروا أن يكون الرسول من البشر. وارتفع «أَبَشَرٌ» على الابتداء. وقيل: بإضمار فعل، والجمعُ على معنى بشر، ولهذا قال: «يَهْدُونَنَا»، ولم يقل: يهدينا. وقد يأتي الواحد بمعنى الجمع فيكونُ اسماً للجنس، وواحدُه إنسانٌ؛ لا واحد له من لفظه(١). وقد يأتي الجمع بمعنى الواحد، نحو قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١].

﴿فَكَفَرُواْ﴾ أي: بهذا القول، إذ قالوه استصغاراً ولم يعلموا أن الله يبعثُ مَن يشاء إلى عباده. وقيل: كفروا بالرسل وتولَّوا عن البرهان، وأعرضوا عن الإيمان والموعظة. ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ أي: بسلطانه عن طاعة عباده. قاله مقاتل. وقيل: استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه لهم من البيان، عن زيادة تدعو إلى الرُّشد وتقودُ إلى الهداية(٢).

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ أي: ظنُّوا، والزَّعْمُ هو القول بالظن. وقال شُريح: لكلِّ شيءٍ كُنْيةٌ، وكُنْيَةُ الكذب زعموا(٣). قيل: نزلت في العاص بن وائلٍ السَّهْميِّ مع خبَّاب، حسب ما تقدَّم بيانُه في آخر سورة مريم(٤)، ثم عمَّت كلَّ كافر. ﴿قُلۡ﴾ يا محمد: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ أي: لَتُخْرَجُنَّ من قبوركم أحياء. ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾: لَتُخْبَرُنَّ. ﴿بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ أي: بأعمالكم. ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ إذ الإعادةُ أسهلُ من الابتداء.

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٥٢.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢١.

(٣) الكشاف ٤/ ١١٤، وتفسير الرازي ٣٠/ ٢٣، وأخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٦٣٧ - ٦٣٨.

(٤) ١٣/ ٥٠٥.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أمرهم بالإيمان بعد أن عرَّفهم قيامَ الساعة. ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ وهو القرآن، وهو نورٌ يُهْتدى به من ظُلمة الضلال. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ العاملُ في «يَوْمَ» «لَتُنَبَّؤُنَّ» أو «خَبِيرٌ» لِمَا فيه من معنى الوعيد، كأنه قال: والله يعاقبكم يوم يجمعكم. أو بإضمار: اذكر[١]. والغَبْنُ: النقص. يقال: غَبَنَه غَبْناً: إذا أخذ الشيءَ منه بدون قيمته.

وقراءةُ العامة: «يَجْمَعُكُمْ» بالياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فأخبر، ولِذِكر اسم الله أوَّلاً. وقرأ نصر وابنُ أبي إسحاقَ والجَحْدَريُّ ويعقوبُ وسلام: «نجمعكم» بالنون[٢]؛ اعتباراً بقوله: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾.

ويومُ الجمع: يومٌ يجمع الله الأوَّلين والآخِرين والإنسَ والجنَّ وأهلَ السماء وأهل الأرض. وقيل: هو يومٌ يجمع الله فيه بين كلِّ عبد وعمله. وقيل: لأنه يجمع فيه بين الظَّالم والمظلوم. وقيل: لأنه يجمع فيه بين كل نبيٍّ وأمَّته. وقيل: لأنه يجمع فيه بين ثواب أهل الطاعات وعقابِ أهل المعاصي. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أي: يومُ القيامة. قال:

وما أرتجي بالعيش في دار فُرقةٍ ألا إنَّما الراحاتُ يومَ التغابنِ

وسمِّيَ يومُ القيامة يومَ التَّغابُن؛ لأنه غَبَن فيه أهلُ الجنة أهلَ النار[٣]. أي: إنَّ

(١) الكشاف ٤/ ١١٥، ووقع في (ظ): اذكروا، بدل: اذكر.
(٢) قراءة يعقوب ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٨٨، وقراءة سلام في القراءات الشاذة ص١٥٧.
(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٣.

أهل الجنة أخذوا الجنة، وأخذَ أهلُ النار النارَ على طريق المبادلة، فوقع الغَبْن لأجل مبادلتهم الخيرَ بالشرِّ، والجيِّدَ بالرديء، والنعيمَ بالعذاب[١]. يقال: غَبَنتُ فلاناً: إذا بايعتَه أو شاريتَه، فكان النقصُ عليه والغَلَبةُ لك. وكذا أهلُ الجنة وأهلُ النار؛ على ما يأتي بيانه. ويقال: غَبَنتُ الثوب وخبنتُه: إذا طال عن مِقدارك فخِطتَ منه شيئاً، فهو نقصانٌ أيضاً. والْمَغَابِنُ: ما انثنى من الخلق نحو الإبْطين والفخذين. قال المفسرون: فالمغبونُ مَن غَبَن أهلَه ومنازله في الجنة. ويظهر يومئذ غَبْنُ كلِّ كافر بتركه[٢] الإيمانَ، وغَبْنُ كلِّ مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام[٣]. قال الزجاج[٤]: وَيْغبِن مَن ارتفعت منزلتُه في الجنة مَن كان دون منزلته.

الثانية: فإن قيل: فأيُّ معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغَبْن فيها. قيل له: هو تمثيلُ الغَبْن في الشراء والبيع[٥]، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٦]. ولمَّا ذكر أن الكفار اشترَوُا الضلالة بالهدى وما ربحوا في تجارتهم بل خسروا، ذَكَر أيضاً أنهم غُبِنوا، وذلك أن أهل الجنة اشتَرَوُا الآخرة بترك الدنيا، واشترى أهلُ النار الدنيا بترك الآخرة. وهذا نوعُ مبادلة اتِّساعاً ومجازاً.

وقد فرَّق الله سبحانه وتعالى الخلق فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للنار. ومنازلُ الكلِّ موضوعةٌ في الجنة والنار. فقد يسبق الخِذلانُ على العبد ـ كما بيَّنَّاه في هذه السورة[٦] وغيرها ـ فيكونُ من أهل النار، فيحصُلُ الموفَّق على منزل المخذول، ومنزلُ الموفَّق في النار للمخذول، فكأنه وقع التبادل فحصل التغابن. والأمثالُ موضوعةٌ للبيان في حكم اللغة والقرآن. وذلك كلُّه مجموعٌ مِن نشر الآثار، وقد جاءت

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٠٣ .

(٢) في (د)ز و(م): بترك.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٣ .

(٤) في معاني القرآن ٥/ ١٨٠ .

(٥) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٠٣ .

(٦) في تفسير الآية الثانية منها.

مفرَّقةً في هذا الكتاب[١]. وقد يُخبر عن هذا التبادل بالوراثة كما بيَّنَّاه في «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ»[٢]. والله أعلم. وقد يقع التغابن في غير ذلك اليوم على ما يأتي بيانه بعدُ، ولكنه أراد التغابن الذي لا جُبران لنهايته.

وقال الحسن وقتادة: بلغنا أنَّ التغابن في ثلاثة أصناف: رجلٍ عَلِم عِلماً فعلَّمه وضيَّعه هو ولم يعمل به، فشَقيَ به، وعَمِل به مَن تعلَّمه منه فَنَجا به. ورجلٍ اكتسب مالاً من وجوه يُسأل عنها وشحَّ عليه، وفرَّط في طاعة ربه بسببه، ولم يعمل فيه خيراً، وتركه لوارث لا حسابَ عليه فيه، فعمل ذلك الوارثُ فيه بطاعة ربِّه. ورجلٍ كان له عبدٌ، فعمل العبد بطاعة ربِّه فسَعِد، وعمل السيِّد بمعصية ربِّه فشَقي.

وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يُقيم الرجل والمرأة يوم القيامة بين يديه، فيقول الله تعالى لهما: قُولَا فما أنتما بقائلين، فيقول الرجل: يا ربِّ أوجبتَ نفقتها عليَّ، فتعسَّفتُها من حلال وحرام، وهؤلاء الخصوم يطلبون ذلك، ولم يَبْقَ لي ما أُوفي به، فتقولُ المرأة: يا ربِّ وما عسى أن أقول، اكتسبَه حراماً وأكلتُه حلالاً، وعصاك في مَرْضاتي ولم أرضَ له بذلك، فبُعداً له وسُحْقاً، فيقول الله تعالى: قد صدقتِ، فيؤمرُ به إلى النار ويؤمر بها إلى الجنة، فَتَطَّلِعُ عليه من طبقات الجنة وتقول له: غَبَنَّاك غَبَنَّاك، سَعِدنا بما شَقِيتَ أنت به» فذلك يوم التغابن[٣].

الثالثة: قال ابن العربيِّ[٤]: استدل علماؤنا بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ على أنه لا يجوز الغَبْن في المعاملة الدُّنيوية؛ لأن الله تعالى خصَّص التغابنَ بيوم القيامة فقال: «ذَٰلِكَ يَوۡمُ التَّغَابُنِ» وهذا الاختصاصُ يُفيد أنه لا غَبْن في الدنيا، فكلُّ مَن اطَّلع

(١) ينظر ١/٢٩٦ ، ١٥/١٥ - ١٦ ، وص٦-٧ من هذا الجزء. والكلام السالف من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٠٣ - ١٨٠٤ .

(٢) ١٥/١٥ - ١٦ .

(٣) لم نقف عليه، والضعف في سياقه ظاهر.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٠٤ - ١٨٠٥ .

على غَبْن في مَبيع، فإنه مردودٌ إذا زاد على الثلُث. واختاره البغداديون واحتجُّوا عليه بوجوه: منها قولُه ﷺ لحَبَّان بن مُنْقِذ: «إذا بايعت فقُلْ: لا خِلابة، ولك الخيارُ ثلاثاً»(١). وهذا فيه نظرٌ طويلٌ بيَّنَّاه في مسائل الخلاف. نُكْتَتُه أن الغَبْن في الدنيا ممنوعٌ بإجماعٍ في حكم الدين، إذ هو من باب الخِداع المحرَّمِ شرعاً في كلِّ ملَّة، لكنَّ اليسيرَ منه لا يمكن الاحتراز عنه لأحد، فمضى في البيوع، إذ لو حَكَمْنا بردِّه ما نفذ بيعٌ أبداً؛ لأنه لا يخلو منه، حتى إذا كان كثيراً أمكن الاحتراز منه؛ فوجب الردُّ به. والفرقُ بين القليل والكثير أصلٌ في الشريعة معلومٌ، فقدَّر علماؤنا الثلثَ لهذا الحدِّ، إذ رأوه في الوصية وغيرها. ويكون معنى الآية على هذا: ذلك يومُ التغابنِ الجائزِ مطلقاً من غير تفصيل. أو: ذلك يومُ التغابنِ الذي لا يُستدرك أبداً؛ لأن تغابن الدنيا يُستدرك بوجهين: إما بردٍّ في بعض الأحوال، وإمَّا بربح في بيع آخرَ وسِلْعَةٍ أخرى. فأمَّا مَنْ خَسِر الجنة فلا درك له أبداً. وقد قال بعض علماء الصوفية: إن الله كتب الغَبْنَ على الخلق أجمعين، فلا يلقى أحدٌ ربَّه إلا مغبوناً؛ لأنه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصُلَ له استيفاء الثواب. وفي الأثر قال النبيُّ ﷺ: «لا يلقى اللهَ أحدٌ إلا نادماً؛ إن كان مسيئاً أنْ لم يحسن، وإن كان محسناً أنْ لم يزدد»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما، والباقون بالياء(٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني: القرآن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ لمَّا ذكر ما للمؤمنين ذكر ما للكافرين؛ كما تقدَّم في

---

(١) سلف ٤/ ٤٣٥ .

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي (والكلام منه): ... إذ لم يحسن، .. إذ لم يزدد. ولم نقف عليه.

(٣) السبعة ص٦٣٨ ، والتيسير ص٢١١ .

غير موضع.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بإرادته وقضائه[1]. وقال الفرَّاء: يريد: إلا بأمر الله[2]. وقيل: إلا بعلم الله[3]. وقيل: سببُ نزولها أنَّ الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقًّا لصانهم الله عن المصائب في الدنيا، فبيَّن الله تعالى أنَّ ما أصاب من مصيبة في نفس أو مال أو قول أو فعل، يقتضي هَمًّا أو يُوجِب عقاباً عاجلاً أو آجلاً، فبعلم الله وقضائه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي: يصدِّقْ ويعلمْ أنه لا يصيبه مصيبةٌ إلا بإذن الله[4] ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ للصبر والرضا. وقيل: يُثَبِّته على الإيمان. وقال أبو عثمان الحيري[5]: مَن صحَّ إيمانه، يَهدِ الله قلبه لاتباع السُّنة[6]. وقيل: «وَمَنْ يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ» عند المصيبة، فيقول: «إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»[7]. قاله ابن جبير. وقال ابن عباس: هو أن يجعل الله في قلبه اليقين ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه[8]. وقال الكَلْبيُّ: هو إذا ابْتُليَ صَبَرَ، وإذا أُنعِم عليه شَكَر، وإذا ظُلم غَفَر[9]. وقيل: يَهْدِ قلبه إلى نيل الثواب في الجنة.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٣.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٦١.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٨١.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٣.

(٥) في (خ) و(ف) و(م): الجيزي، وهو غلط، والصواب ما أثبتناه.

(٦) زاد المسير ٨/ ٢٨٣.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٦١، والنكت والعيون ٦/ ٢٣، ونسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢٨٣ لمقاتل.

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٢.

(٩) النكت والعيون ٦/ ٢٣، وزاد المسير ٨/ ٢٨٣.

وقراءةُ العامة: «يَهْدِ» بفتح الياء وكسر الدال؛ لِذكرِ اسم الله أولاً. وقرأ السُّلَميُّ وقتادةُ: «يُهْدَ قَلْبُه» بضمِّ الياء وفتح الدال على الفعل المجهول ورفع الباء[١]؛ لأنه اسمُ فعلٍ لم يُسمَّ فاعله.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف والأعرج: «نَهْدِ» بنونٍ على التعظيم. «قَلْبَه» بالنصب[٢]. وقرأ عكرمة: «يَهْدَأ قلبُه» بهمزة ساكنة ورفع الباء[٣]، أي: يسكُنْ ويطمئن. وقرأ مثلَه مالكُ بن دينار، إلا أنه ليَّن الهمزة[٤].

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه تسليمُ مَن انقاد وسلَّم لأمره، ولا كراهةُ مَن كرهه.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

أي: هوِّنوا على أنفسكم المصائب، واشتغلوا بطاعة الله، واعملوا بكتابه[٥]، وأطيعوا الرسل في العمل بسُنَّته، فإن توليتم عن الطاعة، فليس على الرسول إلا التبليغ. ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود سواه، ولا خالق غيره، فعليه توكَّلُوا.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا﴾

---

(١) قراءة السلمي في القراءات الشاذة ص١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) ذكرها عن طلحة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥٧ ، وذكرها عن الأعرج ـ وهو عبد الله بن هرمز ـ أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٢٧٨ .

(٣) المحتسب ٢/ ٣٢٣ .

(٤) ذكر هذه القراءات ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥٧ ونسبها لعمرو بن فائد.

(٥) في (ظ): واتلوا كتابه.

﴿لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالمدينة في عَوْف بن مالكٍ الأشْجَعيّ، شكا إلى النبيّ ﷺ جَفاءَ أهلِه وولدِه؛ فنزلت، ذكره النحاس[١]. وحكاه الطَّبَريُّ[٢] عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة التغابن كلُّها بمكةَ إلّا هؤلاء الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ نزلت في عَوْف بن مالكٍ الأشْجَعيّ كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغَزْوَ بَكَوْا إليه ورقَّقُوه فقالوا: إلى مَن تَدَعُنا؟ فيرِقُّ فيُقيم، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ الآيةُ كلُّها بالمدينة في عَوْف بن مالكٍ الأشجعيّ. وبقيةُ الآيات إلى آخر السورة بالمدينة.

وروى الترمذيُّ[٣] عن ابن عباس ـ وسأله رجل عن هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ ـ قال: هؤلاء رجالٌ أسلموا من أهل مكةَ، وأرادوا أن يأتوا النبيَّ ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعُوهم أن يأتوا النبيَّ ﷺ، فلمّا أتَوُا النبيَّ ﷺ، رأَوُا الناس قد فَقُهوا في الدِّين؛ هَمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ الآية. [قال أبو عيسى:] هذا حديث حسن صحيح.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي[٤]: هذا يبيِّن وجه العداوة، فإن العدوَّ لم يكن عدوًّا لذاته، وإنما كان عدوًّا بفعله. فإذا فَعَل الزوج والولد فِعْلَ العدُوِّ، كان عدوًّا، ولا فِعْلَ أقبحُ من الحيلولة بين العبد وبين الطَّاعة. وفي صحيح البخاريِّ من حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الشيطان قَعَد لابن آدم في طريق الإيمان، فقال له: أتؤمنُ وتَذَرُ دِينَك[٥] ودِين آبائك، فخالَفَه فآمن. ثم قعد له على طريق

(١) سلف أول السورة.

(٢) في تفسيره ٢٣/ ١٥ .

(٣) برقم (٣٣١٧)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٠٦ .

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(ظ) و(ق): وتذر ذريتك.

الهجرة، فقال له: أتهاجرُ وتتركُ مالك وأهلك، فخالَفَه فهاجَر. ثم قعد له على طريق الجهاد، فقال له: أتجاهدُ فتقتُلَ نفسك، فتُنكَحَ نساؤك، ويُقسمَ مالك، فخالَفَه فجاهَدَ فقُتِل، فحقٌّ على الله أن يُدخِله الجنة»(١).

وقعود الشيطان يكون بوجهين:

أحدهما: يكون بالوسوسة.

والثاني: بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوجَ والولدَ والصاحب، قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]. وفي حكمة عيسى عليه السلام: مَن اتخذ أهلاً ومالاً وولداً، كان للدنيا عبداً. وفي صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك في حال العبد، قال النبيُّ ﷺ: «تَعِس عبد الدينار، تَعِس عَبْدُ الدِّرْهم، تَعِس عبد الخَميصَة، تَعِس عبد القَطيفة، تَعِس وانتكس، وإذا شِيك فلا انتقش»(٢). ولا دناءة أعظمُ من عبادة الدينار والدرهم، ولا هِمَّة أخسُّ من هِمَّة ترتفع بثوب جديد(٣).

الثالثة: كما أن الرجل يكون له ولدُه وزَوْجُه عدُوًّا، كذلك المرأةُ يكون لها زوجُها وولدها عدوًّا بهذا المعنى بعينه. وعمومُ قوله: «مِنْ أَزْوَاجِكُمْ» يدخل فيه الذَّكَر والأنثى؛ لدخولهما في كلِّ آية. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ معناه على أنفسكم. والحذرُ على النفس يكون

(١) لم يخرجه البخاري في صحيحه كما قال المصنف، لكن أخرجه في التاريخ الكبير ٤/ ١٨٨ من حديث سبرة بن الفاكه بنحوه، وسلف ١٠/ ١٤٢ من حديث سبرة بن الفاكه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. وقوله: تَعِس: أي عثر وانكبَّ لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك. والخميصة: هي ثوب خزٍّ أو صوف مُعْلَم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعْلمة. والقطيفة: هي كساء له خَمْل. وانتكس: أي انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة. وقوله: وإذا شيك فلا انتقش: أي إذا شاكته شوكة، فلا يقدر على انتقاشها، وهو إخراجها بالمنقاش. النهاية (تعس) و(خمص) و(قطف) و(نكس) و(شوك). وسلف ١٩/ ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٠٧ ، والمسألتان الآتيتان منه.

بوجهين: إمَّا لضرر في البدن، وإمَّا لضرر في الدِّين. وضررُ البدن يتعلَّق بالدنيا، وضررُ الدِّين يتعلق بالآخرة. فحذَّر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ روى الطَّبَريُّ[١] عن عكرمةَ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال: كان الرجل يريد أن يأتيَ النبيَّ ﷺ، فيقول له أهلُه: أين تذهب وتدعُنا؟ قال: فإذا أسلم وَفَقُهَ قال: لأرجعنَّ إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر، فلأفعلنّ ولأفعلنّ، قال: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال: ما عادَوهم في الدنيا، ولكنْ حملهم[٢] مودَّتُهم لهم[٣] على أن أخذوا لهم الحرام، فأعطَوه إيَّاهم.

والآيةُ عامةٌ في كلِّ معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد، وخصوصُ السبب لا يمنع عموم الحكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاءٌ واختبار يحملكم على كسب الحرام ومنعِ حقِّ الله تعالى، فلا تطيعوهم في معصية الله. وفي الحديث: «يُؤتَى برجل يوم القيامة فيقال: أكَلَ عِيالُهُ حسناتِه»[٤]. وعن بعض السلف: العِيال

---

(١) في تفسيره ٢٣/ ١٤.

(٢) في (م): حملتهم.

(٣) لفظة: لهم، ليست في (د) و(م).

(٤) الكشاف ٤/ ١١٦ ، ولم نقف عليه مرفوعاً، لكن أخرجه ابن أبي الدنيا في العيال (٤٥١)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ١/ ٩٣ ، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٨١ عن سفيان الثوري بلفظ: يؤمر بالرجل يوم القيامة إلى النار، فيقال: هذا عياله أكلوا حسناته. قال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار ٢/ ٤٢ : غريب مرفوعاً. وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٧٣ : لم أره مرفوعاً.

سُوس الطاعات(١). وقال القُتَيْبي: «فِتْنَةٌ» أي: إغرام، يقال: فُتِن الرجل بالمرأة، أي: شُغف بها(٢). وقيل: «فِتْنَةٌ»: مِحْنة. ومنه قول الشاعر:

لـقـد فُـتِـن الـنـاسُ فـي ديـنـهـمْ وخَـلَّـى ابـنُ عـفَّـان شـرًّا طـويـلا(٣)

وقال ابن مسعود: لا يقولنَّ أحدكم: اللَّهُمّ اعْصِمْني من الفتنة، فإنه ليس أحدٌ منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتملٌ على فتنة، ولكن ليقل: اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من مُضِلَّات الفتن(٤).

وقال الحسن في قوله تعالى: «إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ»: أدخل «مِن» للتبعيض؛ لأن كلَّهم ليسوا بأعداء. ولم يذكر «مِن» في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنهما لا يخلوان من الفتنة، واشتغال القلب بهما(٥).

وروى الترمذيُّ وغيرُهُ عن عبد الله بن بُرَيْدة عن أبيه قال: رأيت النبيَّ ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثُران، فنزل رسول الله ﷺ، فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾. نظرت إلى هذين الصبيَّيْن يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»، ثم أخذ في خُطبته(٦).

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يعني الجنة، فهي الغاية، ولا أجرَ أعظمُ منها في قول

---

(١) الكشاف ٤/ ١١٦.

(٢) في (ظ): غرم بها، والكلام من تفسير غريب القرآن ص٤٦٩.

(٣) أورده المرزباني في معجم الشعراء ص٢٤٠، والبغدادي في خزانة الأدب ٩/ ٤١٩ ونسباه لكثير بن عبد الله النهشلي، ونسبه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ١/ ٤٧٢ للفرزدق.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٢٠.

(٥) أورد هذا القول البغوي في تفسيره ٤/ ٣٥٤ ولم ينسبه. ونقله ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٨٥ عن الفراء.

(٦) سنن الترمذي (٣٧٧٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد. وهو عند أحمد (٢٢٩٩٥)، وأبي داود (١١٠٩)، والنسائي ٣/ ١٠٨، ١٩٢، وابن ماجه (٣٦٠٠).

المفسّرين. وفي الصحيحين(١) ـ واللفظ للبخاريّ ـ عن أبي سعيدٍ الخُدْري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وسَعْدَيْك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالَنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك، فيقول: ألَا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ قالوا: يا ربِّ، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك، فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسْخَطُ عليكم بعده أبداً»(٢). وقد تقدَّم.

ولا شك في أن الرّضَا غايةُ الآمال. وأنشد الصوفية في تحقيق ذلك:

امتحن الله به خلقهُ فالنارُ والجنة في قبضتِهْ
فهجرُه أعظمُ من نارِهِ ووَصْلُه أطْيَبُ من جَنَّتِهْ(٣)

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: ذهب جماعة من أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخةٌ لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، منهم قتادةُ والربيع بن أنس والسُّدِّيُّ وابن زيد(٤). ذكر الطبري(٥): وحدَّثني يونس بن عبد الأعلى قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: جاء أمر

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٠٨ ـ والكلام منه ـ: وعندي ما هو أعظم منها وهو ما ثبت في الصحيح...

(٢) صحيح البخاري (٦٥٤٩)، وصحيح مسلم (٢٨٢٩)، وسلف ٥/٥٨ مختصراً.

(٣) أوردهما أحمد بن محمد المقري التلمساني في نفخ الطيب ٢/٣٩.

(٤) أخرج قولهم الطبري ٥/٦٤٢ - ٦٤٣.

(٥) في تفسيره ٥/٦٤٣.

شديد، قال[١]: ومَن يعرفُ قدر هذا أو يبلغه؟ فلمَّا عَرَف الله أنه قد اشتدَّ ذلك عليهم، نسخها عنهم وجاء بهذه الآية الأخرى فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

وقيل: هي محكمة لا نسخ فيها. وقال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ إنها لم تنسخ، ولكن حقّ تقاته أن يجاهد لله حَقَّ جهاده، ولا يأخذهم في الله لومةُ لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. وقد تقدم[٢].

الثانية: فإن قيل: فإذا كانت هذه الآيةُ محكمةً غيرَ منسوخة، فما وجهُ قوله في سورة التغابن: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وكيف يجوز اجتماع الأمر باتِّقاء الله حقَّ تُقاته، والأمرِ باتِّقائه ما استطعنا، والأمرُ باتِّقائه حقَّ تُقاته إيجابُ القرآن بغير خصوص ولا وصلٍ بشرط، والأمرُ باتِّقائه ما استطعنا أمرٌ باتِّقائه موصولاً بشرط؟

قيل له: قوله: «فاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» بمعزِل ممَّا دلَّ عليه قوله تعالى: «اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ». وإنما عنى بقوله: «فاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جُعل فتنةً لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتُهم، وتصدَّكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام، فتتركوا الهجرة ما استطعتم، بمعنى وأنتم للهجرة مستطيعين. وذلك أن الله جلَّ ثناؤه قد كان عَذَر مَن لم يقدِر على الهجرة بتركها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء:٩٧-٩٩]. فأخبر أنه قد عفا عمَّن لا يستطيع حيلةً ولا يهتدي سبيلاً بالإقامة في دار الشرك، فكذلك معنى قوله: «فاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» في الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام أن تتركوها بفتنة أموالكم وأولادكم. وممَّا يدلُّ على صحة هذا أنَّ قوله: «فاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» عقيبُ قوله:

---

(١) في (م): قالوا.

(٢) ٢٣٨/٥ ، وقد رجح المصنف هناك أن هذه الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ هي بيان للتي في آل عمران، والمعنى: فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم، لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع، والجمع ممكن فهو أولى .اهـ. وهذا ما ذهب إليه النحاس في الناسخ والمنسوخ ١٢٩/٢ ، ومكي في ناسخ القرآن ومنسوخه ص٢٠٣ - ٢٠٤ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ ولا خلاف بين السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أنَّ هذه الآياتِ نزلت بسبب قوم[1] تأخَّروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إيَّاهم عن ذلك، حسب ما تقدم[2]. وهذا كلُّه اختيار الطَّبري[3].

وقيل: «فاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» فيما تُطُوِّع به من نافلة أو صدقة، فإنه لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، اشتدَّ على القوم فقاموا حتى وَرِمت عراقيبهم[4] وتقرَّحت جباههم، فأنزل الله تعالى تخفيفاً عنهم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ فنسخت الأولى. قاله ابن جُبير. قال الماورديُّ[5]: ويحتمل إن لم يثبت هذا النقل أن المُكْرَه على المعصية غيرُ مؤاخذ بها؛ لأنه لا يستطيع اتِّقاءها.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ أي: اسمعوا ما تُوعظون به، وأطيعوا فيما تؤمرون به وتُنْهَوْن عنه. وقال مقاتل: «اسْمَعُوا» أي: أصغوا إلى ما ينزل عليكم من كتاب الله، وهو الأصلُ في السماع. «وَأَطِيعُوا» لرسوله فيما أمركم أو نهاكم. وقال قتادة: عليهما بُويع النبيُّ ﷺ على السمع والطاعة[6]. وقيل: «وَاسْمَعُوا» أي: اقبلوا ما تسمعون، وعبَّر عنه بالسماع لأنه فائدته[7].

قلت: وقد تغلغل في هذه الآية الحجاجُ حين تلاها وقَصَرها على عبد الملك بن مروان فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ هي لعبد الملك بنِ مروان أمينِ

---

(١) بعدها في (خ) و(ز) و(ظ) و(ف) و(ق) و(م): كفار، والتصويب من (د)، ويؤيده ما جاء في اللباب لابن عادل الحنبلي ١٩/ ١٣٩، والكلام فيه قال.. نزلت بسبب قوم كانوا تأخروا..

(٢) في الآية (١٤).

(٣) في تفسيره ٢٣/ ١٤.

(٤) العراقيب جمع عرقوب: وهو عصب غليظ فوق عَقب الإنسان. القاموس (عرقب).

(٥) في النكت والعيون ٦/ ٢٦ وما قبله منه.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٦.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١٠.

الله وخليفتِه، ليس فيها مَثْنَوِيَّة، واللهِ لو أمرت رجلاً أن يخرج من باب المسجد، فخرج من غيره لحلَّ لي دمُه[١]. وَكَذب في تأويلها! بل هي للنبيِّ ﷺ أوّلًا، ثم لأُولي الأمر من بعده. دليلُه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ قيل: هو الزكاة. قاله ابن عباس. وقيل: هو النفقة في النفْل[٢]. وقال الضحاك: هو النفقة في الجهاد. وقال الحسن: هو نفقةُ الرجل لنفسه[٣]. قال ابن العربي[٤]: وإنما أوقع قائلَ هذا قولُه: «لِأَنْفسِكُمْ»، وخِفَيَ عليه أن نفقة النفل والفرض في الصدقة هي نفقةُ الرجل على نفسه، قال الله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: ٧]. وكلُّ ما يفعله الرجل من خير، فإنما هو لنفسه. والصحيحُ أنها عامة. ورُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال له رجل: عندي دينار؟ قال: «أنفِقْهُ على نفسك» قال: عندي آخر؟ قال: «أنفِقْهُ على عيالك» قال: عندي آخر؟ قال: «أنفِقْهُ على ولدك» قال: عندي آخر: قال: «تصدَّقْ به»[٥]. فبدأ بالنفس والأهل والولد وجعل الصدقة بعد ذلك. وهو الأصلُ في الشرع.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ «خَيْراً» نصب بفعل مضمر عند سيبويه[٦]؛ دلَّ عليه: «وَأَنْفِقُوا». كأنه قال: ايتُوا في الإنفاق خيراً لأنفسكم، أو قدِّموا خيراً لأنفسكم من أموالكم. وهو عند الكسائي والفَرَّاء نعتٌ لمصدر محذوف، أي: أنفقوا إنفاقاً خيراً لأنفسكم. وهو عند أبي عبيدة[٧] خَبرُ كان مضمرة، أي: يكن خيراً

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٣).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١٠ دون أن ينسب القول الأول.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٦، وزاد المسير ٨/ ٢٨٦.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٨١٠.

(٥) أخرجه أحمد (٧٤١٩)، وأبو داود (١٦٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ بنحوه، وجاء عند أبي داود تقديم الولد على الزوجة.

(٦) ينظر الكتاب ١/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٧) ينظر مجاز القرآن له ١/ ١٤٣.

لكم. ومَن جعل الخير المال فهو منصوبٌ بـ «أنفِقوا»(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تقدَّم الكلام فيه(٢). وكذا ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ تقدَّم الكلام فيه أيضاً في «البقرة» وسورةِ الحديد(٣). ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ تقدَّم معنى الشكر في «البقرة»(٤). والحليمُ: الذي لا يَعْجَل.

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ أي: ما غاب وحضر. وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب القاهر، فهو من صفات الأفعال، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، أي: من الله القاهر المُحْكِم خالقِ الأشياء. وقال الخطَّابي: وقد يكون بمعنى نفاسة القَدْر، يقال منه: عَزَّ يَعِزُّ ـ بكسر العين ـ فيتأوَّل(٥) معنى العزيز على هذا أنه لا يعادله شيء، وأنه لا مِثل له، والله أعلم. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه. وقال ابن الأنباري: «الْحَكِيمُ»: هو المُحْكِم لخلق الأشياء، صُرِف عن مُفْعِل إلى فَعِيل، ومنه قوله عز وجل: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ معناه المُحْكَم، فصُرَف عن مُفْعَل إلى فَعِيل. والله أعلم.

---

(١) ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٣٩ .

(٢) ٢٠/ ٣٦٩ .

(٣) ٤/ ٢١٩ وما بعدها، و٢٠/ ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٤) ٢/ ١٠٤ - ١٠٦ .

(٥) في (خ) و(ز) و(ف) و(ق) و(م): فيتناول.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

مختلَفٌ فيها[1]، وآيُها ثمانِ عشرةَ[2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بدَلالتِها على كمالِهِ واستغنائِهِ.

﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ قدَّمَ الظَّرفينِ للدَّلالةِ على اختِصَاصِ الأمرينِ بهِ مِن حيثُ الحقيقةُ[3].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنَّ نسبةَ ذاتِهِ المقتضيةِ للقدرةِ إلى الكلِّ على سواءٍ.

ثمَّ شرعَ فيما ادَّعاهُ[4] فقالَ:

---

(١) أي: مكيَّة أو مدنيَّة؛ وقد ذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» (٨/ ٢٧٩) عن عطاء بن يسار: هي مكيّة إلّا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، قوله عزّ وجلّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ واللّتان بعدها، ونسب القول بمدنيتها للجمهور، ومنهم: ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة، ونسب للضحاك القول بأنها مكية كلها. أمّا الداني فقد نَسب قول عطاء لابن عباس ومجاهد أيضًا. انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص٢٤٨).

(٢) ليس في عدد آياتها اختلاف. انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص٢٤٨).

(٣) فلا مُلكَ في الحقيقة إلا مُلكه، وملك غيره تسليط منه تعالى للعبد فهو له بالذات، ولغيره بالعرض، ولا يستحقُّ الحمد سواه سبحانه وتعالى.

(٤) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: المدعَّى هنا كونه قادراً على كل شيء من الذوات والصفات.

(٢) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ مقدَّرٌ كفرُهُ موجَّهٌ إليهِ[١] ما يحملُهُ عليهِ ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ مقدَّرٌ إيمانُهُ موفَّقٌ لما يدعوهُ إليهِ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيعامِلُكُم بما يناسبُ أعمالَكُم.

(٣) ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحِكْمَةِ البالغةِ ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فصوَّركُم مِن جُملةِ ما خلقَ فيهما بأحسنِ صورةٍ، حيثُ زيَّنكُم بصَفوةِ أوصافِ الكائناتِ، وخصَّكُم بخُلاصةِ خصائصِ المبدَعاتِ، وجعلَكُم أنموذَجَ جميعِ المخلوقاتِ.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأحسِنُوا سرائرَكُم حتى لا يَمسَخَ بالعذابِ ظواهِرَكُم[٢].

(٤) ـ ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا يخفَى عليهِ ما يصحُّ أن يُعلَمَ كليًّا كانَ أو جزئيًّا؛ لأنَّ نسبةَ المقتَضِي لعلمِهِ إلى الكلِّ واحدةٌ.

وتقديمُ تقريرِ القدرةِ على العلمِ؛ لأنَّ دلالةَ المخلوقاتِ على قدرتِهِ أوَّلًا وبالذَّاتِ وعلى علمِه بما فيها من الإتقانِ والاختصاصِ ببعضِ الأنحاءِ.

(٥) ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يا أيُّها الكفَّارُ ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ كقومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ.

﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ ضررَ كفرِهِم في الدُّنيا، وأصلُهُ[٣] الثِّقلُ، ومنهُ: «الوبيلُ» لطَعَامٍ يَثقلُ على المَعِدَةِ، و«الوابلُ» للمطرِ الثَّقيلِ القِطارِ[٤].

---

(١) معنى التوجيه إليه: خلقه مستعدًّا ومتهيِّأً لما خُلق له.

(٢) المسخ: تغيير الصورة، فإنَّه بالعذاب تُبدَّل أحسن صورة إلى أقبح صورة. انظر: «حاشية القونوي» (١٩/ ١١٣).

(٣) أي: أصل «وبال».

(٤) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «الثقيل القطار» من إضافة الصفة المشبهة لفاعلها، وهو بزنة «كتاب»: جمع «قَطر».

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرةِ.

(٦) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكورُ من الوبالِ والعذابِ ﴿بِأَنَّهُ﴾ بسببِ أنَّ الشَّأنَ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزاتِ ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أنكَرُوا وتعجَّبُوا أن يكونَ الرُّسلُ بشرًا، و«البشرُ» يُطلقُ للواحدِ والجمعِ.

﴿فَكَفَرُوا﴾ بالرُّسلِ ﴿وَتَوَلَّوا﴾ عن التَّدبُّرِ في البيِّناتِ.

﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ عن كلِّ شيءٍ فضلًا عن طاعتِهم.

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن عبادتِهم وغيرِها ﴿حَمِيدٌ﴾ يدلُّ على حمدِهِ كلُّ مخلوقٍ.

(٧) ـ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ الزَّعمُ: ادِّعاءُ العلمِ، ولذلكَ يتعدَّى إلى مفعولَينِ، وقد قامَ مقامَهُما «أنْ» بما في حيِّزِهِ.

﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ أي: بلى تُبعثونَ ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ قسمٌ أُكِّدَ بهِ الجوابُ[1].

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ بالمحاسبةِ والمجازاةِ.

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لقَبولِ المادَّةِ وحصولِ القدرةِ التامَّةِ[2].

(٨) ـ ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمَّدٍ عليهِ السَّلامُ ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ يعني: القرآنَ، فإنَّهُ بإعجازِهِ ظاهرٌ بنفسِهِ مُظهِرٌ لغيرِهِ ممَّا فيهِ شرحُهُ وبيانُهُ.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فمُجازٍ عليهِ.

(٩) ـ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ ظرفٌ ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ أو مقدَّرٌ بـ: اذكرْ، وقرأَ يعقوبُ: ﴿نجمَعُكُم﴾[3].

---

(١) انظر: «شرح قواعد الإعراب» لشيخ زاده (١/ ٨٥).

(٢) لأنَّ تعسُّر البعث إمَّا لعدم قبول مادَّته للإيجاد، أو لعدم قدرة الفاعل، وكلاهما مُنتفٍ.

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٣٨٨).

﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ لأجلِ ما فيهِ منَ الحسابِ والجزاءِ، والجمعُ جمعُ الملائكةِ والثَّقلينِ.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ يَغبِنُ فيهِ بعضُهم بعضًا لنزولِ السُّعداءِ منازلَ الأشقياءِ لو كانوا سعداءَ، وبالعكسِ[1]، مستعارٌ من تَغابُنِ التُّجَّارِ، واللَّامُ فيهِ[2] للدَّلالةِ على أنَّ التَّغابُنَ الحقيقيَّ هوَ التَّغابُنُ في أمورِ الآخرةِ لعِظَمِها ودوامِها.

﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي عملًا صالحًا.

﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ بالنُّونِ فيهما[3].

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارةُ إلى مجموعِ الأمرينِ[4]، ولذلكَ جعلَهُ الفوزَ العظيمَ لأنَّهُ جامعٌ للمصالحِ مِن دفعِ المضارِّ وجلبِ المنافعِ.

(١٠) ـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ كأنَّها والآيةَ المتقدِّمةَ بيانٌ للتَّغابُنِ وتفصيلٌ لهُ[5].

---

(١) يشهد له ما روى البخاري (٦٥٦٩) وغيره عن أبي هريرة قال النَّبيُّ ﷺ: «لا يدخل أحدٌ الجنَّةَ إلا أُرِيَ مقعدَه من النار لو أساء؛ ليزداد شكرًا، ولا يدخل النار أحد إلا أُرِيَ مقعده من الجنَّة لو أحسنَ؛ ليكون عليه حسرة».

(٢) أي: في كلمة ﴿التَّغَابُنِ﴾، ولام التعريف تدل على أنه كامل في بابه. انظر: «الكتاب» (٢/ ١٢).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٨)، و«النشر» (ص: ٢١١).

(٤) أي: تكفير السيِّئات ودخول الجنَّات.

(٥) الآيتان بيَّنتا منازل السعداء والأشقياء، ففيهما توضيح لمعنى التغابن، وإنما قال: «كأنها» لأنه لا تعرُّض هنا لنزول السعداء منازل الأشقياء، وبالعكس، وتمام بيان التغابن بالتعرض لذلك. انظر: «حاشية القونوي» (١٩/ ١١٩).

(١١) ـ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلَّا بتقديرِهِ وإرادَتِهِ.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للثَّباتِ والاسترجاعِ عندَ حلُولِها[1].

وقُرِئَ: «يُهْدَ قلبُه» بالرَّفعِ على إقامتِهِ مقامَ الفاعلِ، وبالنَّصبِ[2] على طريقةِ ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[3]، و«يَهْدَأ» بالهمزِ[4]؛ أي: يسكُنْ.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ حتَّى القلوبِ وأحوالِها.

(١٢) ـ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: فإن توليتُم فلا بأسَ عليهِ؛ إذ وظيفتُهُ التَّبليغُ وقد بلَّغَ.

(١٣) ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّ إيمانَهُم بأنَّ الكلَّ منهُ يقتضِي ذلكَ.

(١٤) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يَشْغَلُكم عن طاعةِ اللهِ أو يخاصمُكم في أمرِ الدِّينِ أو الدُّنيا.

﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ ولا تأمنُوا غوائِلَهُم.

﴿وَإِن تَعْفُوا۟﴾ عن ذنوبِهم بتركِ المُعاقبةِ ﴿وَتَصْفَحُوا۟﴾ بالإعراضِ وتركِ التَّثريبِ عليها ﴿وَتَغْفِرُوا۟﴾ بإخفائِها وتمهيدِ معذرَتِهم فيها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعاملُكُم بمثلِ ما عمِلتُم ويتفضَّلُ عليكُم.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٦١)، و«التفسير البسيط» (٢١/ ٤٨٦).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٨) عن أبي جعفر والسلمي.

(٣) وفيه وجهان من التأويل: أنه تمييز محوَّل عن فاعل وقد جاء معرفة شذوذًا، أو هو منصوب بنزع الخافض. انظر: «شرح كتاب سيبويه» للسيرافي (٢/ ٧٩).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٨)، و«المحتسب» (٢/ ٣٢٣) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعكرمة وعمرو بن دينار.

(١٥) ـ ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ اختبارٌ لكُم ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لمن آثرَ محبَّةَ اللهِ وطاعتهُ على محبَّةِ الأموالِ والأولادِ والسَّعيِ لهُم.

(١٦) ـ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي: ابذلُوا في تقواهُ جُهدَكم وطاقتكُم.

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ مواعظَهُ ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أوامرَهُ ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ في وجوهِ الخيرِ خالصًا لوجهِهِ.

﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾ أي: افعلوا ما هوَ خيرٌ لها، وهو تأكيدٌ للحثِّ على امتثالِ هذهِ الأوامرِ، ويجوزُ أن يكونَ صفةَ مصدرٍ محذوفٍ؛ أي: إنفاقًا، أو خبرًا لـ(كانَ) مقدَّرٍ جوابًا للأوامرِ.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ سبقَ تفسيرُهُ.

(١٧) ـ ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ بصرفِ المالِ فيما أمرَهُ ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ مقرونًا بإخلاصٍ وطيبِ قلبٍ[١].

﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ يجعلْ لكُم بالواحدِ عشرًا إلى سبعِ مئةٍ وأكثرَ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ: ﴿يُضَعِّفْهُ لَكُم﴾[٢].

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ببركةِ الإنفاقِ.

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيلَ بالقليلِ ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجِلُ بالعقوبةِ.

(١٨) ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لا يخفى عليهِ شيءٌ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تامُّ القدرةِ والعلمِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ التَّغابُنِ دُفِعَ عنهُ موتُ الفجأةِ»[٣].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «وطيب نفس».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٨)، و«التيسير» (ص: ٨١)، و«النشر» (٢/ ٢٢٨).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٤٨٠)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٠٦) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور سورة سورة. انظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٦٤) سورة التغابن مدنية
وآياتها ثماني عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾

هذه السورة هي آخر المسبحات، وقد تقدّم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها، ولهذا قال تعالى ﴿له الملك وله الحمد﴾ أي هو المتصرف في جميع الكائنات، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره . وقوله تعالى: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن، وقوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ ، أي هو الخالق لكم على هذه الصفة، فلا بد من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ ، ثم قال تعالى: ﴿خلق السماوات والأرض بالحق﴾ أي بالعدل والحكمة، ﴿وصوّركم فأحسن صوركم﴾ أي أحسن أشكالكم ، كقوله تعالى: ﴿الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك﴾، وكقوله تعالى: ﴿وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وإليه المصير﴾ أي المرجع والمآل . ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية فقال تعالى: ﴿يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾ .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين، وما حلّ بهم من العذاب والنكال، في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فقال تعالى: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل﴾ أي خبرهم وما كان من أمرهم ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾ أي وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي، ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي في الدار الآخرة، ثم علل ذلك فقال: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالحجج والدلائل والبراهين، ﴿فقالوا أبشر يهدوننا﴾ أي استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم، ﴿فكفروا وتولوا﴾ أي كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل، ﴿واستغنى﴾ أي عنهم، ﴿والله غني حميد﴾.

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم﴾[1] أي لتخبرن بجميع أعمالكم جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها ﴿وذلك على الله يسير﴾ أي بعثكم ومجازاتكم، ثم قال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ يعني القرآن ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية، وقوله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ وهو يوم القيامة، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون، في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾، وقال تعالى: ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾، وقوله تعالى: ﴿ذلك يوم التغابن﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار، وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة، ويذهب بأولئك إلى النار.

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

---

(١) هذه هي الآية الثالثة التي أمر رسول الله ﷺ أن يقسم بربه على وقوع المعاد، فالأولى في يونس: ﴿قل إي وربي إنه لحق﴾ والثانية في سبأ: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾، والثالثة هي هذه: ﴿زعم الذين كفروا﴾ الآية.

يقول تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾ قال ابن عباس: بأمر الله يعني عن قدره ومشيئته، ﴿ومن يؤمن بالله يهدِ قلبه والله بكل شيء عليم﴾ أي ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب عوّضه عما فاته من الدنيا، هدى في قلبه ويقينا صادقاً، قال ابن عباس: يعني يهدِ قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وقال الأعمش عن علقمة ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ قال: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم، وقال سعيد بن جبير: يعني يسترجع يقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾، وفي الحديث المتفق عليه: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»(1)، وقوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، ثم قال تعالى: ﴿فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ أي إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حمّل من البلاغ، وعليكم ما حمّلتم من السمع والطاعة، قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم، ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد: ﴿الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي وحدوا الإلهية له وأخلصوها لديه وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد، أن منهم من هو عدوّ الزوج والوالد، بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿فاحذروهم﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم، وقال مجاهد ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم﴾ قال: يحمل الرجل على قطيعة الرحم، أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه، وقال ابن أبي حاتم: عن ابن عباس، وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ، رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهمّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾(2). وقوله تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

أجر عظيم﴾ . يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد﴿ فتنة﴾ أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، وقوله تعالى: ﴿ والله عنده﴾ أي يوم القيامة ﴿ أجر عظيم﴾ كما قال تعالى: ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ . روي أن رسول الله ﷺ كان يخطب، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما، فوضعهما بين يديه، ثم قال: « صدق الله ورسوله ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما »[1] . وقال رسول الله ﷺ: « الولد ثمرة القلوب ، وإنهم مجبنة مبخلة محزنة »[2] .

وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم﴾ أي جهدكم وطاقتكم كما ثبت في الصحيحين: « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » ، وهذه الآية ناسخة للتي في آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ ، قال: لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم﴾ فنسخت الآية الأولى، وقوله تعالى: ﴿ واسمعوا وأطيعوا﴾ أي كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، وقوله تعالى: ﴿ وأنفقوا خيراً لأنفسكم﴾ أي وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم، يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة ، وقوله تعالى: ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ تقدم تفسيره في سورة الحشر ، وقوله تعالى: ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه ، ونزّل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت في الصحيحين أن الله تعالى يقول: « من يقرض غير ظلوم ولا عديم »[3] ، ولهذا قال تعالى ﴿ يضاعفه لكم﴾، كما قال تعالى: ﴿ فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ ﴿ ويغفر لكم﴾، أي ويكفر عنكم السيئات ، ﴿ والله شكور﴾ أي يجزي على القليل بالكثير ، ﴿ حليم﴾ أي يصفح ويغفر ويستر ، ويتجاوز عن الذنوب والزلات، ﴿ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم﴾[4] تقدم تفسيره غير مرة .

[آخر تفسير سورة التغابن ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) رواه أحمد وأهل السنن عن أبي بريدة .
(٢) أخرجه الحافظ البزار .
(٣) أخرجاه في الصحيحين .
(٤) في اللباب : أخرج ابن جرير : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم﴾ نزلت في عوف بن ملك الأشجعي كان ذا أهل وولد ، فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه حتى يرق ويقيم .

تفسير سورة التغابن

وهى مدنية ، وقيل : مكية .

قال الطبرانى : حدثنا محمد بن هارون بن محمد بن بكار الدمشقى ،حدثنا العباس بن الوليد الخلال ، حدثنا الوليد بن الوليد ،حدثنا ابن ثوبان ، عن عطاء بن أبى رباح ،عن عبد الله بن عَمرو، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا مكتوب فى تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن » [١] .

أورده ابن عساكر فى ترجمة « الوليد بن صالح » [٢] ، وهو غريب جداً ، بل منكر .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) ﴾ .

هذه السورة هى آخر المُسبِّحات ، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ أى : هو المتصرف فى جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره .

وقوله : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ أى : هو الخالق لكم على هذه الصفة ، وأراد منكم ذلك ، فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزيهم بها أتم الجزاء ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

ثم قال: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى : بالعدل والحكمة ،﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أى : أحسن أشكالكم ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٢٩٠) عن أحمد ، عن أيوب بن محمد الوزان، عن الوليد بن الوليد به ، وقال : « لم يروه عن ابن ثوبان إلا الوليد القلانسى » والوليد ضعيف .

(٢) تاريخ دمشق (١٧/ ٨٣١ « المخطوط ») .

فعدَلَكَ . فِي أيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٦ـ ٨] ، وكقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ الآية [غافر:٦٤] ، وقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: المرجع والمآب .

ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية ،فقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين ، وما حل بهم من العذاب والنكال ؛ فى مخالفة الرسل والتكذيب بالحق ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ أى : خبرهم وما كان من أمرهم ، ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أى : وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم ، وهو ما حل بهم فى الدنيا من العقوبة والخزى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : فى الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوى . ثم علل ذلك فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى : بالحجج والدلائل والبراهين ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾؟ أى: استبعدوا أن تكون الرسالة فى البشر، وأن يكون هداهم على يدى بشر مثلهم ، ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ﴾ أى : كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل،﴿ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ أى : عنهم ، ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين والكفار والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أى : لَتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : بعثكم ومجازاتكم .

وهذه هى الآية الثالثة التى أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه ، عز وجل ، على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى فى سورة يونس: ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣]، والثانية فى سورة سبأ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ الآية

[سبأ:٣] ، والثالثة هي هذه [﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾] (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ يعني: القرآن ، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي : فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾: وهو يوم القيامة ، سمى بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود:١٠٣] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة:٤٩، ٥٠] .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ قال ابن عباس : هو اسم من أسماء يوم القيامة . وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار . وكذا قال قتادة ومجاهد .

وقال مقاتل بن حيان : لا غبن أعظمُ من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ، ويُذهَب بأولئك إلى النار .

قلت : وقد فسر ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . وقد تقدم تفسير مثلُ هذه (٢) غير مرة .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ [الحديد:٢٢] ،وهكذا قال هاهنا: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾: قال ابن عباس : بأمر الله ، يعني : عن قدره (٣) ومشيئته .

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله ، هدى الله قلبه ، وعوّضه عما فاته من الدنيا هُدى في قلبه ، ويقيناً صادقاً ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه ، أو خيراً منه .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ يعني : يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

---

(١) زيادة من م ، أ .
(٢) في م : « هذا » ، وفي أ : « ذلك ».
(٣) في أ : « عن قدرته » .

وقال الأعمش ، عن أبى ظَبْيان قال: كنا عند علقمة فقُرئ عنده هذه الآية : ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ ، فسُئل عن ذلك فقال : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم. رواه ابن جرير(١) ، وابن أبى حاتم (٢) .

وقال سعيد بن جبير ، ومقاتل بن حيان : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ يعنى: يسترجع ، يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦] .

وفى الحديث المتفق عليه : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضَرَّاء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سَرَّاء شكر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (٣) .

وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا الحارث بن يزيد ، عن على بن رَبَاح ؛ أنه سمع جنادة بن أبى أمية يقول : سمعت عبادة بن الصامت يقول : إن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أى العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ، وتصديق به ، وجهاد فى سبيله » . قال : أريد أهونَ من هذا يا رسول الله . قال : « السماحة والصبر » . قال : أريد أهون من ذلك يارسول الله . قال : « لا تتهم الله فى شىء ، قضى لك به » . لم يخرجوه (٤) .

وقوله : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ : أمرٌ بطاعة الله ورسوله فيما شرع ، وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى (٥) وزجر ، ثم قال : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى : إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حُمِّل من البلاغ ، وعليكم ما حُمِّلتم من السمع والطاعة .

قال الزهرى : من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم (٦) .

ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد ، الذى لا إله غيره ، فقال : ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ، فالأول خَبَرٌ عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أى: وحدوا الإلهية له ، وأخلصوا لديه ، وتوكلوا عليه ، كما قال تعالى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ .

(١) تفسير الطبرى (٢٨/ ٧٩) .

(٢) فى م : « وابن أبى حاتم فى تفسيرهما » .

(٣) الحديث رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومى ، رضى الله عنه .

(٤) المسند (٥/ ٣١٨) .

(٥) فى م : « ما ينهى عنه » .

(٦) رواه البخارى فى صحيحه معلقاً (١٣/ ٥٠٣) « فتح » .

يقول تعالى مخبراً على الأزواج والأولاد : أن منهم من هو عدو الزوج والوالد ، بمعنى : أنه يلتهى به عن العمل الصالح ، كقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [المنافقون:٩] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ **فَاحْذَرُوهُمْ** ﴾ قال ابن زيد : يعنى على دينكم .

وقال مجاهد : ﴿ **إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ** ﴾ قال : يحملُ الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه .

وقال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى ،حدثنا محمد بن خلف العسقلانى (١) ، حدثنا الفريابى ، حدثنا إسرائيل ، حدثنا سماك بن حرب ،عن عكرمة ، عن ابن عباس ـ وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ** ﴾ ـ قال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناسَ قد فقهوا فى الدين ، فَهَمُّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

وكذا رواه الترمذى عن محمد بن يحيى ، عن الفريابى ـ وهو محمد بن يوسف ـ به (٢). وقال:حسن صحيح . ورواه ابن جرير والطبرانى ، من حديث إسرائيل ، به (٣) . ورُوى من طريق العوفى ، عن ابن عباس ، نحوه ، وهكذا قال عكرمة مولاه سواء .

وقوله : ﴿ **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ : يقول تعالى : إنما الأموال والأولاد فتنة ، أى : اختبار وابتلاء من الله لخلقه . ليعلم من يطيعه ممن يعصيه .

وقوله : ﴿ **وَاللَّهُ عِندَهُ** ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ **أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ كما قال : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ** [**ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ والتى بعدها] (٤) [آل عمران:١٤،١٥].

وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى حُسَين بن واقد ، حدثنى عبد الله بن بُرَيْدة، سمعت أبى (٥) بريدة يقول : كان رسول الله ﷺ يخطب ، فجاء الحسن والحسين ،رضى الله عنهما، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال : « صدق الله ورسوله ،إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » .

---

(١) فى م : « الصيدلانى » .

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٣١٧) .

(٣) تفسير الطبرى (٢٨/ ٨٠) والمعجم الكبير للطبرانى (١١/ ٢٧٥) .

(٤) زيادة من م ، وفى هـ : « الآية » .

(٥) فى هـ ، م ، أ : « أبا » ، والمثبت من المسند .

ورواه أهل السنن من حديث حُسَين بن واقد ، به [١]. وقال الترمذى : حسن غريب ، إنما نعرفه من حديثه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج بن النعمان ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا مجالد ، عن الشعبى ، حدثنا الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ﷺ فى وفد كندة ، فقال لى : « هل لك من ولد ؟ » قلت : غلام ولد لى فى مَخرَجى إليك من ابنة جمْد ، ولَوَدَدْتُ أن بمكانه : شبَعَ القوم . قال : « لا تقولن ذلك ، فإن فيهم قرة عين ، وأجراً إذا قبضوا » ، ثم قال : « ولئن قلت ذاك : إنهم لمجبنة مَحْزنة إنهم لمجبنة مَحْزنة » تفرد به أحمد [٢] ، رحمه الله تعالى .

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمود بن بكر ، حدثنا أبى ، عن عيسى [ابن أبى وائل] [٣]، عن ابن أبى ليلى ، عن عطية ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الولد ثمرة القلوب ، وإنهم مَجبنة مَبخلة محزنة » ثم قال : لا يعرف إلا بهذا الإسناد [٤] .

وقال الطبرانى : حدثنا هاشم بن مرثد [٥] ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثنى أبى، حدثنى ضَمْضَمُ بنُ زُرْعَةَ ، عن شريح بن عبيد ، عن أبى مالك الأشعرى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «ليس عدوك الذى إن قتلته كان فوزاً لك ، وإن قتلك دخلت الجنة ، ولكن الذى لعله عدو لك ولدك الذى خرج من صلبك ، ثم أعدى عدو لك مالُك الذى ملكت يمينك » [٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أى : جهدكم وطاقتكم . كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » [٧] .

وقد قال بعض المفسرين ـ كما رواه مالك ، عن زيد بن أسلم ـ إن هذه الآية العظيمة ناسخة للتى فى «آل عمران» وهى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنى يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر ، حدثنى ابن لَهيعة ، حدثنى عطاء ـ هو ابن دينار ـ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ قال : لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ، فنسخت الآية الأولى .

---

(١) المسند (٥/ ٣٥٤) وسنن أبى داود برقم (١١٠٩) وسنن الترمذى برقم (٣٧٧٤) وسنن النسائى (٣/ ١٠٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣٦٠٠).

(٢) المسند (٥/ ٢١١) .

(٣) زيادة من أ .

(٤) مسند البزار برقم (١٨٩٢) « كشف الأستار » قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٥٥) : « وفيه عطية العوفى وهو ضعيف » المجبنة : مظنة للجبن ، والمبخلة : سبب للبخل ، والمحزنة : سبب للحزن .

(٥) فى هـ ، م ، أ : « مزيد » ، والمثبت من المعجم الكبير .

(٦) المعجم الكبير (٣/ ٢٩٤) وفيه ضعف وانقطاع وقد تقدم بيانه مراراً .

(٧) صحيح البخارى برقم (٧٢٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٣٣٧) .

وروى عن أبى العالية ، وزيد بن أسلم ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسُّدِّىّ ، ومُقاتل بن حيَّان ، نحو ذلك .

وقوله : ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ أى : كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة ، ولا تقدموا بين يدى الله ورسوله ،ولا تتخلفوا عما به أمرتم ، ولا تركبوا ما عنه زُجرتم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ أى : وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوى الحَاجات ، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم ، يكن خيراً لكم فى الدنيا والآخرة ، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم فى الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ : تقدم تفسيره فى سورة « الحشر » وذكر الأحاديث الواردة فى معنى هذه الآية ، بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد والمنة ، وقوله: ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أى : مهما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شىء فعليه جزاءه ، ونزل ذلك منزلة القرض له ، كما ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول : « من يقرض غير ظلوم ولا عديم » [1] . ولهذا قال : ﴿ يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ كما تقدم فى سورة البقرة : ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أى : ويكفر عنكم السيئات . ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ أى : يجزى على القليل بالكثير ﴿حَلِيمٌ ﴾ أى :[يعفو و] [2] يصفح ويغفر ويستر ، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ : تقدم تفسيره غير مرة .

---

(١) صحيح مسلم برقم(٧٥٨) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه

(٢) زيادة من م.

/ سورة التغابن [١٩٧ظ]

مختلفٌ فيها، وهي ثماني عشرةَ آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يُنزِّهه سبحانه جميعُ ما فيهما مِن المخلوقات عمّا لا يليق بجناب كبريائه تنزيهًا مستمرًا. ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ لا لغيره؛ إذ هو المبدئ لكلّ شيء وهو القائم به والمهيمن عليه، وهو المُولي لأصول النِّعم وفروعها، وأمّا مُلك غيره فاسترعاء مِن جنابه وحمدُ غيره اعتدادٌ بأنّ نعمة الله جرت على يده. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ لأنّ نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكلّ سواء.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ خلقًا بديعًا حاويًا لجميع مبادي الكمالات العِلميّة والعمليّة، ومع ذلك ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ﴾ أي: فبعضكم أو فبعض منكم مختار للكفر كاسبٌ له على خلاف ما يستدعيه خلقتُه، ﴿وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ مختار للإيمان كاسبٌ له حسبما يقتضيه خلقتُه، وكان الواجب عليكم جميعًا أن تكونوا مختارين للإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتفرّع عليها مِن سائر النعم، فما فعلتم ذلك مع تمام تمكُّنكم منه؛ بل تشعّبتُم شُعَبًا وتفرّقتُم فِرَقًا. وتقديمُ الكفر لأنّه الأغلب فيما بينهم والأنسبُ بمقام التوبيخ. وحملُه على معنى: فمنكم كافر مقدّر كفرُه متوجِّه إليه ما يحمله عليه ومنكم مؤمن مقدّر إيمانُه موفَّق لِما يدعوه إليه،[1] ممّا لا يلائم المقام.

---

[1] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤١٠/٣.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازيكم بذلك فاختاروا منه ما يُجديكم مِن الإيمان والطاعة، وإيّاكم وما يُرديكم مِن الكفر والعصيان.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بالحكمة البالغة المتضمِّنة للمصالح الدينيّة والدنيويّة ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ حيث برأكم في أحسن تقويم وأودعَ فيكم مِن القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة ما نِيطَ بها جميعُ الكمالات البارزة والكامنة، وزيَّنكم بصفوة صفاتِ مصنوعاته وخصَّكم بخلاصة خصائص مبدعاته، وجَعَلكم أنموذجَ جميع مخلوقاته في هذه النشأة، ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ في النشأة الأخرى لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا، فأحسِنوا سرائركم باستعمال تلك القُوى والمشاعر فيما خُلِقْن له.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن الأمور الكلّيّة والجزئيّة والأحوال الجليّة والخفيّة ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ أي: ما تُسرُّونه فيما بينكم وما تُظهرونه مِن الأمور. والتصريح به مع اندراجه فيما قبله؛ لأنّه الذي يدور عليه الجزاء، ففيه تأكيد للوعد والوعيد وتشديد لهما.

[١٩٨و] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ/ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله مِن شمول علمه تعالى لسرِّهم وعلنهم، أي: هو محيط بجميع المضمرات المستكنَّة في صدور الناس بحيث لا تُفارقها أصلًا، فكيف يخفى عليه ما يسرُّونه وما يعلنونه. وإظهار الجلالة للإشعار بعلّة الحُكم وتأكيدِ استقلال الجملة. قيل: وتقديمُ تقرير القدرة على تقرير العِلم؛ لأنّ دلالة المخلوقات على قدرته بالذات وعلى عِلمه بما فيها مِن الإتقان والاختصاص ببعض الأنحاء.[١]

---

١ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤١١/٣.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيُّها الكفرة ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ كقوم نوح ومَن بعدهم مِن الأمم المصرّة على الكفر ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿كَفَرُوا۟﴾. والوبال الثِّقَل والشدّة المترتِّبة على أمر مِن الأمور. وأمرهم: كفرهم عُبِّر عنه بذلك للإيذان بأنّه أمر هائل وجناية عظيمة، أي: ألم يأتِكم خبر الذين كفروا مِن قبلُ فذاقوا مِن غير مهلة ما يستتبعه كفرهم في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يُقادَر قَدْره.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقونه في الآخرة ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بسبب أنّ الشأنّ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ عطفٌ على ﴿كَانَت﴾ ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: قال كلّ قوم مِن المذكورين في حقّ رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات منكِرين لكون الرسول مِن جنس البشر متعجّبين مِن ذلك: أبشَرٌ يهدينا، كما قالت ثمود: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر، ٢٤/٥٤]. وقد أجمِل في الحكاية فأُسنِد القول إلى جميع الأقوام وأريدَ بالبشر الجنس فوُصِف بالجمع، كما أُجمِل الخطابُ والأمرُ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣].

﴿فَكَفَرُوا۟﴾ أي: بالرسل ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن التدبّر فيما أتوا به مِن البيّنات وعن الإيمان بهم، ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ أي: أظهَر استغناءه عن إيمانهم وطاعتِهم حيث أهلكهم وقطَع دابرهم، ولولا غناه تعالى عنهما لَمَا فعل ذلك. ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن العالمين فضلًا عن إيمانهم وطاعتهم، ﴿حَمِيدٌ﴾ يحمده كلّ مخلوق بلسان الحال، أو مستحقٌّ للحمد بذاته وإن لم يحمده حامد.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨﴾

[١٩٨ظ] ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ / الزعم: ادِّعاءُ العِلم، يتعدّى إلى مفعولين، وقد قام مقامَهما ﴿أَن﴾ المخفَّفة مع ما في حيّزه. والمراد بالموصول كفّار مكّة، أي: زعموا أنّ الشأن لن يبعثوا بعد موتهم أبدًا. ﴿قُلۡ﴾ ردًّا عليهم وإبطالًا لزعمهم بإثبات ما نفوه: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: تُبعثون.

وقوله: ﴿وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ أي: لتحاسبنَّ وتُجزَونَّ بأعمالكم، جملة مستقلّة داخلةٌ تحت الأمر واردةٌ لتأكيد ما أفاده كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ مِن إثبات البعث وبيانِ تحقّق أمر آخرَ متفرّع عليه منوطٍ به، ففيه تأكيدٌ لتحقّق البعثِ بوجهين. ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن البعث والجزاءِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لتحقّق القدرة التامّة وقَبول المادّة.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ فصيحة مَفصِحة عن شرط قد حُذف ثقةً بغاية ظهوره، أي: إذا كان الأمر كذلك فآمنوا ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ وهو القرآن فإنّه بإعجازه بيّن بنفسه مبيّنٌ لغيره، كما أنّ النور كذلك. والالتفاتُ إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الامتثال بالأمر وعدمِه ﴿خَبِيرٞ﴾ فمُجازيكم عليه. والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله مِن الأمر، موجِبٌ للامتثال به بالوعد والوعيد. والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتأكيدِ استقلال الجملة.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠﴾

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ﴾ ظرف ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾،[١] وقيل: لـ﴿خَبِيرٞ﴾،[٢] لِما فيه مِن معنى الوعيد، كأنّه قيل: والله مُجازيكم ومُعاقبكم يومَ يجمعكم، أو مفعول لـ"اذكرْ".[٣]

---

١ التغابن، ٦٤/٧.

٢ في الآية السابقة.

٣ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١٥.

وقُرئ: "نَجْمَعُكُمْ"[١] بنون العظمة. ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ ليوم يُجمَع فيه الأوّلون والآخِرون، أي: لأجل ما فيه مِن الحساب والجزاء.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أي: يومُ غَبْن بعض الناس بعضًا بنزول السُّعداء منازلَ الأشقياء لو كانوا سعداءَ وبالعكس. وفي الحديث: «ما مِن عبد يدخل الجنّة إلّا أريَ مقعدَه مِن النار لو أساء لِيزدادَ شكرًا، وما مِن عبد يدخل النارَ إلّا أريَ مقعده مِن الجنّة لو أحسَنَ لِيزدادَ حسرةً».[٢] وتخصيص التغابن بذلك اليوم للإيذان بأنّ التغابن في الحقيقة هو الذي يقع فيه لا ما يقع في أمور الدنيا.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ / أي: عملًا صالحًا ﴿يُكَفِّرْ﴾ أي: الله عزّ [١٩٩و]
وجلّ، وقُرئ بنون العظمة.[٣] ﴿عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ يوم القيامة ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وقُرئ: "نُدْخِلْهُ"[٤] بـ"النون". ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن تكفير السيّئات وإدخالِ الجنّات ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فَوْزَ[٥] وراءه لانطوائه على النجاة مِن أعظم الهَلَكات والظفرِ بأجلّ الطَّلِبات.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: النارُ.

كأنّ هاتين الآيتين الكريمتين بيانٌ لكيفيّة التغابن.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ مِن المصائب الدنيويّة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتقديره وإرادته، كأنّها بذاتها متوجّهة إلى الإنسان متوقّفة على إذنه تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

---

١ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٨.
٢ بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٦/٥٧٨ (١٠٩٨٠)؛ وصحيح البخاري، ٨/١١٧ (٦٥٦٩)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ١/٥٨٠ (٣٧١).
٣ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.
٤ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.
٥ وفي هامش م: الفوز: هو النجاة مِن المكروه والظفر بالخير. قاموس. | انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، «فوز».

﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ عند إصابتها للثبات والاسترجاع. وقيل: يهدِ قلبه حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليُخطئه وما أخطأه لم يكن ليُصيبه. وقيل: يهدِ قلبه، أي: يلطُف به ويشرحه لازدياد الطاعة والخيرِ.[١] وقُرئ: "يُهْدَ قَلْبُهُ"[٢] على البناء للمفعول ورُفِع ﴿قَلْبَهُۥ﴾، وقُرئ بنصبه[٣] على نهج ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة، ٢/١٣٠]، وقُرئ: "يَهْدَأْ قَلْبُهُ"[٤] بالهمزة، أي: يسكُن.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها القلوب وأحوالها ﴿عَلِيمٌ﴾ فيعلم إيمانَ المؤمن ويهدي قلبَه إلى ما ذُكر.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٢﴾

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ كُرِّر الأمرُ للتأكيد والإيذانِ بالفرق بين الطاعتين في الكيفيّة وتوضيحِ مَوْرِد التولّي في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُم﴾ أي: عن إطاعة الرسول. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ تعليل للجواب المحذوف، أي: فلا بأسَ عليه؛ إذ ما عليه إلّا التبليغ المبين، وقد فعل ذلك بما لا مَزيد عليه.

وإظهارُ الرسول مضافًا إلى نون العظمة في مقام إضماره لتشريفه عليه السلام والإشعارِ بمدار الحُكم الذي هو كون وظيفته عليه السلام محضَ البلاغ، ولزيادة تشنيعِ التولّي عنه.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٣﴾

[١٩٩ظ] / ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، أي: هو المستحقّ للمعبوديّة لا غير. وفي إضمار خبرِ ﴿لَآ﴾ مثل "في الوجود" أو "يصحّ أن يوجد" خلافٌ للنُّحاة معروف.

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤١٥-٤١٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٩.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٥.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي بكر رضي الله عنه وعكرمة وعمرو بن دينار. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٩.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: عليه تعالى خاصّة دون غيره لا استقلالًا ولا اشتراكًا ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وإظهارُ الجلالة في موقع الإضمارِ للإشعار بعلّة التوكّل والأمرِ به، فإنّ الألوهيّة مقتضية للتبتّل إليه تعالى بالكلّيّة وقطعِ التعلّق عمّا سواه بالمرّة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يشغلونكم عن طاعة الله تعالى، أو يُخاصمونكم في أمور الدِّين أو الدنيا. ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ الضمير للعدوّ، فإنّه يُطلَق على الجمع، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ [الشعراء، ٧٧/٢٦]، أو للأزواج والأولادِ جميعًا، فالمأمور به على الأوّل الحذرُ عن الكلّ،[١] وعلى الثاني إمّا الحذر عن البعض، لأنّ منهم مَن ليس بعدوّ، وإمّا الحذر عن مجموع الفريقين لاشتمالهم على العدوّ.

﴿وَإِن تَعْفُوا۟﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلِّقةً بأمور الدنيا أو بأمور الدِّين، لكن مقارنة للتوبة، ﴿وَتَصْفَحُوا۟﴾ بتَرْك التثريبِ والتعيير ﴿وَتَغْفِرُوا۟﴾ بإخفائها وتمهيد عُذرها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يُعاملكم بمثل ما عملتُم ويتفضّل عليكم.

وقيل: إن ناسًا مِن المؤمنين أرادوا الهجرة عن مكّة فثبّطهم أزواجُهم وأولادهم، وقالوا: تنطلقون وتُضيِّعوننا، فَرَقُّوا لهم ووقفوا، فلمّا هاجروا بعد ذلك ورأوا المهاجرين الأوّلين قد فَقُهوا في الدِّين أرادوا أن يُعاقبوا أزواجَهم وأولادهم فزُيِّن لهم العفو. وقيل: قالوا لهم: أين تذهبون وتدَعُون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم، فغضبوا عليهم وقالوا: لئن جمعَنا الله في دار الهجرة لم نُصبكم بخير، فلمّا هاجروا منعوهم الخير، فحُثّوا على أن يعفوا عنهم ويردُّوا إليهم البرّ والصلة.[٢]

---

١ وفي هامش م: أي: عن كلّ ما رجع إليه الضمير. «منه».

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤١٦/٤.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ بلاء ومِحْنة يُوقعونكم في الإثم مِن حيث لا تحتسبون. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لمَن آثر محبّة الله تعالى وطاعته على محبّة الأموال والأولاد والسعي في تدبير مصالحهم.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي: ابذلوا في تقواه جُهدَكم وطاقتَكم ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ مواعظَه ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أوامره ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ ممّا رزقكم في الوجوه التي أمركم بالإنفاق فيها خالصًا لوجهه ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾ أي: ائتوا خيرًا لأنفسكم وافعلوا ما هو خير لها وأنفعُ. وهو تأكيد للحثّ على امتثال هذه الأوامر وبيانٌ لكون الأمور المذكورة خيرًا لأنفسهم. ويجوز أن يكون صفةً لمصدر محذوف، أي: إنفاقًا خيرًا، أو خبرًا لـ"كان" مقدّرًا جوابًا للأوامر، أي: يكن خيرًا لأنفسكم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مرام.

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ بصرف أموالكم إلى المصارف التي عيّنها ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ مقرونًا بالإخلاص وطِيب النفس، ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ بالواحد عشرةً إلى سبعمائة وأكثرَ. وقُرِئ: "يُضَعِّفْهُ لَكُمْ".[1] ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ببركة الإنفاق ما فرط منكم مِن بعض الذنوب.

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيل بمقابلة النزر القليل، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم.

[1] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لا يخفى عليه خافية، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المبالغ في القدرة والحكمة.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة التغابن دُفع عنه موتُ الفجأة».[١]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٨٠/٢٦ (التغابن، ١/٦٣)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٠٦/٤ (التغابن، ١/٦٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤١٧/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٦٤

سورة التغابن

مكية أو مدنية، ثمانيْ عشْرةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ أي: يُنزِّهه ـ فاللام: زائدة، وأُتِيَ بـ «ما» دُون «مَن» تغليبًا للأكثر ـ ﴿لَهُ المُلكُ ولَهُ الحَمدُ، وهُوَ على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم، فمِنكُم كافِرٌ ومِنكُم مُؤمِنٌ﴾ في أصل الخلقة، ثم يُميتهم ويُعيدهم على ذلك، ﴿واللهُ بِما تَعمَلُونَ بَصِيرٌ، خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ بِالحَقِّ، وصَوَّرَكُم فأحسَنَ صُوَرَكُم﴾ إذ جعل شكل الآدميّ أحسن الأشكال، ﴿وإلَيهِ المَصِيرُ، يَعلَمُ ما في السَّماواتِ والأرضِ، ويَعلَمُ ما تُسِرُّونَ وما تُعلِنُونَ. واللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما فيها من الأسرار والمُعتقدات.

٥ ـ ﴿ألَم يأتِكُم﴾ ـ يا كُفّارَ مكّةَ ـ ﴿نبَأُ﴾: خبرُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبلُ، فذاقُوا وَبالَ أمرِهِم﴾: عُقوبةَ الكُفر في الدنيا، ﴿ولَهُم﴾ في الآخرة ﴿عَذابٌ ألِيمٌ﴾: مؤلم؟ ٦ ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: عذاب الدنيا ﴿بِأنَّهُ﴾ ـ ضميرُ الشأن ـ ﴿كانَت تأتِيهِم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ﴾:..

سورة التغابن

قولُهُ: (في أصلِ الخِلْقَةِ) فواحدٌ مقدَّرٌ كفرُهُ موجَّهٌ إليهِ ما يحملُهُ عليهِ عدلاً، وآخرُ مقدَّرٌ إيمانُه موفَّقٌ لِمَا يدعُوهُ إليهِ فضلاً، لا يسألُ عمَّا يفعلُ أصلاً.

قولُهُ: (يا كُفَّارَ مَكَّةَ) العُمومُ أولى.

قولُهُ: (عُقُوبَةَ كُفرِهِم) وضررَهُ، وأصلُهُ: الثِّقَلُ.

قولُهُ: (أي: عَذَابُ الدُّنيَا) والأظهرُ: المذكورُ من الوَباءِ والعَذابِ.

بالحُجج الظاهرات على الإيمان، ﴿فقالُوا: أبَشَرٌ﴾ ـ أُريدَ به الجِنسُ ـ ﴿يَهدُونَنا؟ فكَفَرُوا وتَوَلَّوا﴾ عن الإيمان، ﴿واستَغنَى اللهُ﴾ عن إيمانهم. ﴿واللهُ غَنِيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾: محمود في أفعاله.

٧ ـ ٨ ـ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أنْ﴾ ـ مُخففةٌ واسمها محذوف ـ أي: أنّهم ﴿لَن يُبعَثُوا. قُلْ: بَلَى ورَبِّي لَتُبعَثُنَّ، ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بما عَمِلتُم. وذلِكَ علَى اللهِ يَسِيرٌ. فآمِنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ والنُّورِ﴾: القُرآن ﴿الَّذِي أنزَلْنا. واللهُ بِما تَعمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. ٩ ـ ١٠ ـ اذكرْ ﴿يَومَ يَجمَعُكُم لِيَومِ الجَمعِ﴾: يوم القيامة. ﴿ذلِكَ يَومُ التَّغابُنِ﴾: يَغبنُ المُؤمنون الكافرين بأخذ منازلهم وأهليهم في الجنّة، لو آمنوا ﴿ومَن يُؤمِنْ بِاللهِ ويَعمَلْ صالِحًا يُكَفِّرْ عَنهُ سَيِّئاتِهِ ويُدخِلْهُ﴾ ـ وفي قراءة بالنون في الفعلين ـ ﴿جَنّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها أبَدًا ـ ذلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ ـ والَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِآياتِنا﴾: القُرآن ﴿أُولئِكَ أصحابُ النّارِ خالِدِينَ فِيها، وبِئسَ المَصِيرُ﴾ هي!

قولُهُ: (الحُجَجِ) أو المعجزاتِ.

قولُهُ: (أُرِيْدَ بِهِ الجِنْسُ) أنكَروا وتعجَّبوا أن يكونَ الرَّسولُ بشراً، وجوَّزوا أن يكونَ الإلهُ حجراً.

قولُهُ: (عَنِ الإِيمَانِ) أو عن التَّدبُّرِ في البيِّناتِ.

قولُهُ: (عَن إِيمَانِهِم) وغيرِهِ.

قولُهُ: (عَن خَلقِهِ) فضلاً عن طاعتِهِم.

قولُهُ: (مَحمُودٌ في أَفْعَالِهِ) حُمِدَ أو لم يُحمَدْ، أو يدلُّ على حمدِهِ كلُّ مخلوقٍ.

قولُهُ: (القُرآنِ) فإنَّهُ بإعجازِهِ ظاهرٌ بنفسِهِ مظهرٌ لغيرِهِ بما فيه شرحُهُ وبيانُهُ.

قولُهُ: (يَومِ القِيَامَةِ) لأجلِ ما فيهِ من الحسابِ والجزاءِ، و﴿الجمع﴾ جمعُ الملائكةِ والثَّقلينِ.

قولُهُ: (يَغبِنُ) أي: يغبنُ فيه بعضُهم بعضاً؛ لنزولِ السُّعداءِ منازلَ الأشقياءِ لو كانوا سعداءَ، وبالعكسِ، مستعارٌ من تغابنَ التُّجّارُ، واللّامُ فيه للدَّلالةِ على أنَّ التَّغابنَ الحقيقيَّ هو التَّغابنُ في أمورِ الآخرةِ لعُظْمِها ودوامِها، فيظهرُ غبنُ كلِّ كافرٍ بتركِ الإيمانِ، وغبنُ كلِّ مؤمنٍ بتقصيرِهِ في الإحسانِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وشاميٍّ[1].

قولُهُ: (في الفِعْلَينَ) أي: الأخيرينِ[2] كأنَّ الآيتينِ بيانٌ للتَّغابنِ وتفصيلٌ له.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١١).

(٢) في أكثر الأصول زيادة: «قوله» ووجودها خطأ.

١١ ـ ١٢ ـ ﴿ما أصابَ مِن مُصِيبةٍ إلاّ بإذنِ اللهِ﴾: بقضائه، ﴿ومَن يُؤمِنْ باللهِ﴾ في قوله: «إنّ المُصيبة بقضائه» ﴿يَهدِ قَلبَهُ﴾ للصبر عليها، ﴿واللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ. وأطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ. فإن تَوَلَّيتُم فإنَّما على رَسُولِنا البَلاغُ المُبِينُ﴾: البيِّنُ. ١٣ ـ ﴿اللهُ لا إلـٰهَ إلاّ هُوَ، وعلى اللهِ فلْيَتَوكَّلِ المُؤمِنُونَ﴾.

١٤ ـ ١٥ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إنَّ مِن أزواجِكُم وأولادِكُم عَدُوًّا لَكُم. فاحذَرُوهُم﴾ أن تُطيعوهم في التخلّف عن الخير، كالجِهاد والهِجرة ـ فإنّ سبب نُزول الآية الإطاعةُ في ذلك ـ ﴿وإن تَعفُوا﴾ عنهم في تثبيطهم إياكم عن ذلك الخير مُعتلّين بمشقّة فِراقكم عليهم، ﴿وتَصفَحُوا وتَغفِرُوا، فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. إنَّما أموالُكُم وأولادُكُم فِتنَةٌ﴾ لكم شاغلةٌ عن أُمور الآخرة، ﴿واللهُ عِندَهُ أجرٌ عَظِيمٌ﴾. فلا تُفوّتوه باشتغالكم بالأموال والأولاد.

١٦ ـ ﴿فاتَّقُوا اللهَ ما استَطَعتُم﴾ ـ ناسخةٌ لقوله: «اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ» ـ ﴿واسمَعُوا﴾ ما أُمرتم به سماعَ قَبول ﴿وأطِيعُوا، وأنفِقُوا﴾ في الطاعة، ﴿خَيرًا لِأنفُسِكُم﴾: خبرُ «يكن» مُقدّرة جواب الأمر. ﴿ومَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فأُولئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ﴾: الفائزون.

١٧ ـ ﴿إن تُقرِضُوا اللهَ قَرضًا حَسَنًا يُضاعِفْهُ لَكُم﴾ ـ وفي قِراءة: «يُضَعِّفْهُ» بالتشديد. بالواحدةِ عشرًا إلى سبعِمِائةٍ وأكثرَ...

قولُهُ: (للصَّبرِ) والاسترجاعِ عندَ حُلولها.

قولُهُ تعالى: (﴿وإن تعفوا وَتَصْفَحُوا﴾) بالإعراضِ وتركِ التَّرتيبِ (﴿وتغفرُوا﴾) بإخفائِها وتمهيدِ معذرتِهِم فيها (﴿فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾) يعاملُكُم بمثلِ ما عامَلتُم.

قولُهُ: (عَنهُم) أي: عن ذنوبِهِم بتركِ المعاقَبةِ.

قولُهُ: (شَاغِلَةٌ) أو اختبارٌ لكُم، ولذا قالَ بعضُ أهلِ الأحوالِ: كثرةُ العيالِ فضيحةُ الرِّجالِ.

قولُهُ: (نَاسِخَةٌ) أو مبيِّنةٌ مفسِّرةٌ، فإنَّ معناهُ: ابذُلوا في تقواهُ جهدَكُم وطاقتَكُم.

قولُهُ: ﴿اللهَ﴾ أي: أوامرَهُ.

قولُهُ: (مَا أُمِرْتُم) أو مواعِظَ.

قولُهُ: (فِي الطَّاعَةِ) خالصاً لوجهِهِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لمكِّيٍّ وبصريٍّ[1].

(١) الصواب: لمكي وشامي، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٣٨)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٨٨).

وهو التصدّق عن طِيب قلب ـ ﴿ويَغفِرْ لَكُم﴾ ما يشاء. ﴿واللهُ شَكُورٌ﴾: مُجازٍ على الطاعة ﴿حَلِيمٌ﴾ في العِقاب على المعصية، ١٨ ـ ﴿عالِمُ الغَيبِ﴾: السرّ ﴿والشَّهادةِ﴾: العلانية ﴿العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في صُنعه.

قولُهُ: (وهُو التَّصَدُّقُ) أي: صرفُ المالِ في سُبُلِ الخيرِ مقروناً بإخلاصٍ.

قولُهُ: (مَا يَشَاءُ) ببركةِ الإنفاقِ.

قولُهُ: (مُجَازٍ) يُعطِي الجزيلَ بالقليلِ.

قولُهُ: (عَلى المَعصِيَةِ) لا يعاجلُ بالعقوبةِ خُصُوصاً على البخلاءِ، واللهُ أعلمُ.

* * *

سورة التغابن

مدنيَّةٌ في قول الأكثرين، وعن ابن عباس وعطاء بن يسار أنها مكيةٌ إلا آياتٍ من آخرها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ إلخ.

وعددُ آيها تسعَ عشرةَ آيةً بلا خلاف. ومناسَبَتُها لِمَا قبلها أنه سبحانه ذكر هناك حالَ المنافقين، وخاطَبَ بعدُ المؤمنين، وذكر جلَّ وعلا هنا تقسيمَ الناس إلى مؤمنٍ وكافرٍ. وأيضاً في آخر تلك: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾، وفي هذه: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾ وهذه الجملة على ما قيل كالتعليل لتلك. وأيضاً في ذكر التغابن نوعُ حَثٍّ على الإنفاق قبل الموت المأمور به فيما قبل.

واستنبطَ بعضُهم عُمُرَ النبيِّ ﷺ ثلاثاً وستين من قوله تعالى في تلك السورة: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ فإنها رأسُ ثلاثٍ وستين سورة، وعقَّبها سبحانه بالتغابن ليظهر التغابنُ في فَقْده عليه الصلاة والسلام.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ أي: يُنزِّهه سبحانه وتعالى جميعُ المخلوقات عمَّا لا يليق بجناب كبريائه سبحانه تسبيحاً مستمرًّا، وذلك بدلالتها على كماله عزَّ وجلَّ واستغنائه تعالى، والتجدُّد باعتبار تجدُّد النظر في وجوه الدلالة على ذلك.

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ﴾ لا لغيره تعالى؛ إذ هو جلَّ شأنه المبدئ لكلِّ شيءٍ، وهو القائم به والمهيمنُ عليه، وهو عزَّ وجلَّ المولي لأُصول النِّعم وفروعها، وأما مُلك

غيره سبحانه فاسترعاءٌ منه تعالى وتسليط، وأما حَمْدُ غيره تبارك وتعالى فلجريان إنعامه تعالى على يده، فكلا الأمرين له تعالى في الحقيقة، ولغيره بحَسَبِ الصورة. وتقديمُ «له الملك» لأنه كالدليل لما بعده.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ لأنَّ نسبةَ ذاته جلَّ شأنه ـ المقتضيةِ للقدرة ـ إلى الكلِّ سواء، فلا يُتصوَّر كونُ بعضٍ مقدوراً دون بعض.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ إلخ بيانٌ لبعض قدرته تعالى العامة، والمراد: هو الذي أَوجدكم كما شاء.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ ـ أي: فبعضكم كافرٌ به تعالى، وبعضُكم مؤمنٌ به عزَّ وجلَّ، أو: فبعضٌ منكم كافرٌ به سبحانه، وبعضٌ منكم مؤمنٌ به تعالى ـ تفصيلٌ لما في «خلقكم» من الإجمال؛ لأنَّ كونَ بعضهم أو بعضٍ منهم كافراً، وكونَ بعضهم أو بعضٍ منهم مؤمناً، مرادٌ منه، فالفاء مِثْلُها في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ إلخ [النور: ٤٥]، فيكون الكفر والإيمان في ضِمْنِ الخلق، وهو الذي تؤيِّده الأخبار الصحيحةُ كخبر البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود عن ابن مسعود قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ: «إنَّ خَلْقَ أحدكم يُجمَعُ في بطنِ أُمِّه أربعينَ يوماً نُطفةً، ثم يكون عَلَقةً مثل ذلك، ثم يكونُ مُضْغة مثل ذلك، ثم يَبعثُ الله إليه ملكاً بأربع كلمات: يكتب رزقَهُ، وأجلَهُ، وعملَهُ، وشقيٌّ أو سعيدٌ، ثم يَنفُخُ فيه الروح...» الحديث[1].

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مكثَ المنيُّ في الرَّحِم أربعينَ ليلةً، أتاهُ ملكُ النفوس، فعَرَجَ به إلى الرَّبِّ، فيقول: يا ربِّ أذَكَرٌ أم أنثى؟ فيقضي الله ما هو قاضٍ، فيقول: أشقيٌّ أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاقٍ». وقرأ أبو ذَرٍّ من فاتحة التغابن خمس آيات إلى

(١) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، والترمذي (٢١٣٧)، وأبو داود (٤٧٠٨). وهو عند أحمد (٣٦٢٤). وسلف ٣/ ٣٢٤.

قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[(١)].

والجمعُ بين الخبرين مما لا يخفى على مَنْ أوتي نصيباً من العلم. وتقديمُ الكفر لأنه الأغلب.

واختار بعضُهم كونَ المعنى: هو الذي خَلَقَكم خَلْقاً بديعاً حاوياً لجميع مبادي الكمالات العلمية والعملية، ومع ذلك فمنكم مختارٌ للكفر كاسبٌ له على خلاف ما تستدعيه خِلْقته، ومنكم مختارٌ للإيمان كاسبٌ له حسبما تقتضيه خِلْقته، وكان الواجبُ عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان، شاكرين لنعمة الخَلْق والإيجاد وما يتفرَّعُ عليهما من سائر النعم، فما فعلتم ذلك مع تمام تمكُّنكم منه، بل تشعَّبتم شُعَباً وتفرَّقتم فِرَقاً. وهو الذي ذهب إليه الزمخشريُّ، بَيْدَ أنه فسَّرَ الكافرَ بالآتي بالكُفْرِ والفاعل له، والمؤمنَ بالآتي بالإيمان والفاعل له؛ لأنه الأوفقُ بمذهبه من أنَّ العبدَ خالقٌ لأفعاله، وأنَّ الآيةَ لبيان إخلالهم بما يقتضيه التَّفضُّل عليهم بأصل النِّعم، الذي هو الخَلْقُ والإيجادُ من العَدَم[(٢)]، وأنَّ الآيات بعدُ في معنى الوعيد على الكفر، وإنكار أن يُعصَى الخالقُ ولا تُشكَر نعمته. ثم قال: فما أجهلَ مَنْ يمزجُ الكفرَ بالخَلْق، ويجعلهُ من جملته، والخلقُ أعظمُ نعمةٍ من الله تعالى على عباده، والكفرُ أعظمُ كفرانٍ من العباد لربِّهم سبحانه.

وجعل الطِّيبيُّ الفاءَ على هذا للترتيب والفرض على سبيل الاستعارة، كاللام في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وهي كالفاء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦] ولم يجعلها للتفصيل كما قيل.

واختار في الآية المعنى السابق مؤيِّداً له بالأحاديث الصحيحة، وبأنَّ السياقَ عليه، مُدَّعياً أنَّ الآيات كلَّها واردةٌ لبيانِ عَظَمة الله تعالى في مُلْكه وملكوته، واستبداده فيهما، وفي شمول علمه تعالى كلِّها، وفي إنشائه تعالى المكوَّنات ذواتها

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢٧، وأخرجه أيضاً الدارمي في الرد على الجهمية ص٢٥. وأخرجه الطبري ٢٣/ ٦ عن أبي ذرٍّ موقوفاً.

(٢) في الأصل و(م): النعم، والمثبت من الكشاف ٤/ ١١٣.

وأعراضها. ووافقه في اختيار ذلك تلميذُهُ المدقِّقُ صاحبُ «الكشف»، واعترض قولَ الزمخشريِّ: فما أجهلَ.. إلخ، بقوله: فيه ما مرَّ مراراً، كأنه يعني مخالفةَ النصوص في عدم كون الكفر مخلوقاً كغيره، على أنَّ خَلْقَ الكفر أيضاً من النِّعَم العظام، فلولا خَلْقه وتبيين ما فيه من المضارِّ، ما ظهر مقدارُ الإنعام بالإيمان وما فيه من المنافع، ثم إنَّ كونه كُفراً باعتبار قيامه بالعبد، ومنه جاءَ القُبْحُ، لا باعتبار كونه خَلْقه تعالى، على ما حُقِّق في موضعه، ثم قال: ومنه يظهر أنَّ تكلُّفه في قوله تعالى: «فمنكم» إلخ ليخرجه عن تفصيل المجمل في «خَلَقكم»، تحريفٌ لكتاب الله تعالى. انتهى.

ويُرجِّحُ التفصيلَ عندي في الجملة قوله تعالى: «كافر» و«مؤمن» دون: من يكفر، ومن يؤمن، نعم عدمُ دخول الكفر والإيمان في الخلق أوفقُ بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وقوله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة»(١). والإنصافُ أنَّ الآية تحتملُ كلًّا من المعنيين؛ المعنى الذي ذُكر أولاً، والمعنى الذي اختاره البعضُ، والسياقُ يحتملُ أن يُحمَلَ على ما يناسب كلًّا، وليس نصًّا في أحد الأمرين اللَّذين سمعتهما، حتى قيل: إنَّ الآيات واردةٌ لبيان ما يتوقَّفُ عليه الوعد والوعيد بعدُ من القدرة التامَّة والعلم المحيط بالنشأتين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ - أي: فيجازيكم بما يناسبُ ذلك - لا ينافي خَلْقَ الكفر والإيمان؛ لأنهما مكسوبان للعبد، وخَلْقُ الله تعالى إياهما لا ينافي كونَهما مكسوبين للعبد، كما بُيِّنَ في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] لكنَّ أكثرَ الأحاديث تؤيِّدُ المعنى الأول، وكأني بك تختارُ الثاني؛ لأن كون المقام للتوبيخ على الكفر أظهرُ، وهو أوفقُ به.

وعن عطاء بن أبي رباح: «فمنكم كافر» أي: بالله تعالى، مؤمنٌ بالكوكب، «ومنكم مؤمنٌ» بالله تعالى كافرٌ بالكوكب.

وقيل: «فمنكم كافرٌ» بالخلق، وهم الدهرية، «ومنكم مؤمنٌ» به.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧١٢)، والبخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) (٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن الحسن أنَّ في الكلام حذفاً، والتقدير: ومنكم فاسقٌ. ولا أراه يصحُّ، وكأنه من كَذِبِ المعتزلة عليه.

والجملةُ ـ على ما استظهر بعضُ الأفاضل ـ معطوفةٌ على الصِّلة، ولا يضرُّهُ عدمُ العائد؛ لأنَّ المعطوفَ بالفاء يكفيه(١) وجودُ العائد في إحدى الجملتين كما قرَّروه في نحو: الذي يطيرُ فيغضبُ زيدٌ الذبابُ، أو يقال: فيها رابطٌ بالتأويل، أي: فمنكم مَنْ قُدِّرَ كُفْره، ومنكم مَنْ قُدِّرَ إيمانه، أو: فمنكم كافرٌ به، ومنكم مؤمنٌ به، ويُقدَّرُ الحذفُ تدريجاً. وجُوِّزَ أن يكونَ العَطْفُ على جملة: «هو الذي خلقكم».

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة البالغة المتضمِّنة للمصالح الدينية والدنيوية، قيل: وأصلُ الحقِّ مقابلُ الباطل، فأُريد به الغَرَضُ الصحيحُ الواقعُ على أتمِّ الوجوه، وهو الحكمةُ العظيمةُ.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ حيث بَرَأَكُمْ سبحانه في أحسن تقويم، وأَودَعَ فيكم من القُوى والمشاعر الظاهرة والباطنة ما نِيْطَ بها جميعُ الكمالات البارزة والكامنة، وزيَّنكم بصَفْوةِ صفاتِ مصنوعاته، وخَصَّكم بخلاصة خصائص مُبدَعاته، وجعلكم أُنموذجَ جميع مخلوقاته في هذه النشأة، وقد ذكر بعضُ المحقِّقين أنَّ الإنسانَ جامعٌ بين العالم العلويِّ والسُّفلي، وذلك لروحه التي هي من عالم المجرَّدات، وبدنه الذي هو من عالم المادِّيات، وأنشدوا:

وتزعمُ أنك جِرْمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ(٢)

ولعَمْري إنَّ الإنسان أعجبُ نسخَةٍ في هذا العالم، قد اشتملتْ على دقائق أسرارٍ شهدتْ ببعضها الآثارُ، وعَلِمَ ما عَلِمَ منها ذوو الأبصار، وخصَّ بعضُهم الصورةَ بالشكل المدرَك بالعين كما هو المعروف، وكلُّ ما يُشاهَدُ من الصُّوَر الإنسانية حَسَنٌ، لكنَّ الحُسْنَ كغيره من المعاني على طبقاتٍ ومراتبَ، فلانحطاط

(١) جاء في هامش الأصل: المصرَّح أن ذلك فيما إذا كانت الفاء للسببية، فلا تغفل.
(٢) البيت في الديوان المنسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ص٤٥.

بعضِها عن مراتب ما فوقها انحطاطاً بيِّناً، وإضافتها إلى المُوْفي عليها، لا تُسْتَملح، وإلا فهي داخلةٌ في حَيِّز الحُسْنِ غيرُ خارجةٍ من حَدِّه؛ ألا ترى أنك قد تعجبُ بصورةٍ وتستملحها ولا ترى الدنيا بها، ثم ترى أملحَ وأعلى في مراتب الحُسْن، فينبو عن الأُولى طَرْفُكَ، وتستثقلُ النظرَ إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها، وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال والبيان.

وقرأ زيد بن عليٍّ وأبو رزين: «صِوَرَكم» بكسر الصاد[1]، والقياسُ الضَّمُّ كما في قراءة الجمهور.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ في النشأة الأُخرى، لا إلى غيره استقلالاً أو اشتراكاً، فاصرفوا ما خُلِقَ لكم فيما خُلِقَ له؛ لئلّا يمسخ ما يشاهَد من حُسْنكم بالعذاب.

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الأمور الكليَّة والجزئيَّة، والأحوال الجَلِيَّةِ والخفيَّة ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: ما تُسرُّونه فيما بينكم، وما تظهرونه من الأمور، والتصريحُ به مع اندراجه فيما قبله؛ للاعتناء بشأنه؛ لأنه الذي يدورُ عليه الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لِمَا قبله من شمول عِلْمه تعالى لِسِرِّهم وعَلَنهم، أي: هو عزَّ وجلَّ محيطٌ بجميع المُضْمَراتِ المستكنَّةِ في صدور الناس، بحيث لا تفارقها أصلاً، فكيف يخفى عليه تعالى ما يُسرُّونه وما يعلنونه؟ وإظهارُ الجلالة للإشعار بعِلَّة الحُكْم وتأكيد استقلال الجملة، قيل: وتقديمُ تقرير القدرة على العلم؛ لأنَّ دلالةَ المخلوقات على قدرته تعالى بالذات، وعلى عِلْمه سبحانه لِمَا[2] فيها من الإتقان والاختصاص ببعض الأنحاء.

وقرأ عبيد عن أبي عمرو، وأبان عن عاصم: «ما يُسرُّون وما يُعلنون» بياء الغيبة[3].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٧، والمحرر ٥/ ٣١٨، والبحر ٨/ ٢٧٧.

(٢) في تفسير أبي السعود ٨/ ٢٥٦ (والكلام منه): بما، وكلاهما صواب. ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٢٠٢.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٧٧.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أي: أيُّها الكَفَرَةُ؛ لدلالة ما بعدُ على تخصيص الخطاب بهم، وظاهرُ كلام بعض الأجلَّة أنَّ المرادَ بهم أهلُ مكة، فكأنه قيل: ألم يأتكم يا أهل مكة ﴿نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم من الأمم المصرَّة على الكفر ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ضَرَرَ كُفْرهم في الدنيا من غير مُهْلة، وأصلُ الوبال: الثِّقَلُ والشِّدَّةُ المترتِّبةُ على أمرٍ من الأمور، ومنه الوبيل: لطعام يَثْقُلُ على المعدة، والوابلُ: للمطر الثقيل القِطَار، واستُعمل للضرر؛ لأنه يثقلُ على الإنسان ثِقَلاً معنويًّا، وعبّر عن كفرهم بالأمر؛ للإيذان بأنه أمرٌ هائلٌ وجنايةٌ عظيمةٌ.

﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ لا يُقادَرُ قَدْرُهُ.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ما ذُكِرَ من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا، وما سيذوقونه في الآخرة ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي: بسبب أنَّ الشأن ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الظاهرة ﴿فَقَالُوا﴾ عَطْفٌ على «كانت» ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: قال كلُّ قومٍ من أولئك الأقوام الذين كفروا في حَقِّ رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات، منكِرين لكون الرسول من جنس البشر، أو متعجِّبينَ من ذلك: أَبَشَرٌ يهدينا، كما قالت ثمود: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ [القمر: ٢٤] وقد أجمل في الحكاية، فأُسند القول إلى جميع الأقوام، وأُريد بالبشر الجنس فوُصِفَ بالجمع، كما أُجمل الخطاب والأمر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وارتفاعُ «بشر» على الابتداء، وجملة «يهدوننا» هو الخبر عند الحوفيِّ وابنِ عطية[1]، والأحسنُ أن يكونَ مرفوعاً على الفاعليَّة بفعلٍ محذوفٍ يُفسِّرهُ المذكورُ؛ لأنَّ همزةَ الاستفهام أَمْيَلُ إلى الفعل، والمادة من باب الاشتغال.

﴿فَكَفَرُوا﴾ بالرسل عليهم السلام ﴿وَتَوَلَّوا﴾ عن التأمُّل فيما أُتوا من البينات؛ وعن الإيمان بهم ﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أي: أظهر سبحانه غناه عن إيمانهم وعن طاعتهم، حيث أهلكهم وقَطَعَ دابرهم، ولولا غناهُ عزَّ وجلَّ عنهما لما فعل ذلك. والجملةُ عَطْفٌ على ما قبلها، وقيل: في موضع الحال، على أنَّ المعنى: فكفروا وتولَّوا،

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٣١٨.

وقد استغنى الله تعالى عن كلِّ شيءٍ. والأول هو الوجه ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن العالمين، فضلاً عن إيمانهم وطاعتهم ﴿حَمِيدٌ ۝٦﴾ يَحمدهُ كلُّ مخلوقٍ بلسان الحال الذي هو أفصحُ من لسان المقال، أو مستحقٌّ جلَّ شأنه للحَمْدِ بذاته، وإن لم يحمده سبحانه حامدٌ.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ الزَّعْمُ: ادِّعاءُ العلم، وأكثرُ ما يستعمل للادِّعاء الباطل.

وعن ابن عمر وابن شريح أنه كُنْيةُ الكذب، واشتهر أنه مطيَّةُ الكذب، ولما فيه من معنى العلم يتعدَّى إلى مفعولين، وقد قام مقامهما هنا «أن» المخفَّفة وما في حَيِّزها، والمراد بالموصول ـ على ما في «الكشاف»(1) ـ أهلُ مكة. فهو ـ على ما سمعتَ في الخطاب ـ من إقامة الظاهر مقام المضمر، ويؤيده ظاهراً قوله تعالى:

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ قال في «الكشف»: ويحتمل التعميمَ، فيتناولهم وأضرابهم لتقدُّم كفار مكة في الذِّكر وغيرهم ممن حُملوا على الاعتبار بحالهم، وهذا أبلغُ، أي: زعموا أنَّ الشأنَ لن يُبعثوا بعد موتهم، قُلْ ردًّا عليهم وإظهاراً لبطلان زَعْمهم بإثبات ما نفوه: بلى تبعثون، وأكَّد ذلك بالجملة القَسَمية، فهي داخلةٌ في حَيِّز الأمر، وكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: لتحاسبنَّ وتُجزَونَّ بأعمالكم، وزِيدَ ذلك لبيان تحقُّق أمرٍ آخرَ متفرِّعٍ على البعث، منوطٍ به، ففيه أيضاً تأكيدٌ له. ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكِرَ من البعث والجزاء ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ لتحقُّقِ القدرة التامة وقبول المادة.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ مُفْصِحةٌ بشرطٍ قد حُذِفَ ثقةً بغاية ظهوره، أي: إذا كان الأمر كذلك فآمنوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ الذي سمعتم ما سمعتم من شؤونه عزَّ وجلَّ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ محمدٍ ﷺ ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ وهو القرآن، فإنه بإعجازه بيِّنٌ بنفسه، مُبيِّنٌ لغيره، كما أنَّ النورَ كذلك، والالتفاتُ إلى نون العظمة لإبراز العناية بأمر الإنزال، وفي ذلك من تعظيم شأن القرآن ما فيه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الامتثال

---

(1) ٤/ ١١٤.

بالأمر وتَرْكه ﴿خَبِيرٌ ⑧﴾ عالم بباطنه. والمراد كمالُ علمه تعالى بذلك، وقيل: عالمٌ بأخباره.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ ظرفٌ لـ «تُنَبَّؤُنَّ»، وقوله تعالى: «وذلك على الله يسير» وقوله سبحانه: «فآمنوا» إلى «خبير» من الاعتراض، فالأولُ يُحقِّقُ القدرةَ على البعث، والثاني يُؤكِّدُ ما سيق له الكلامُ من الحثِّ على الإيمان به وبما تضمَّنه من الكتاب وبمَنْ جاء به، وبالحقيقة هو نتيجةُ قوله تعالى: «لتبعثن ثم لتنبؤن» قُدِّمَ على معموله للاهتمام، فجرى مجرى الاعتراض، وقوله سبحانه: «والله بما تعملون خبير» اعتراضٌ في اعتراض؛ لأنه من تتمَّة الحثِّ على الإيمان كما تقول: اعمل إني غيرُ غافلٍ عنك.

وقال الحوفي: ظرفٌ لـ «خبير». وهو عند غير واحد من الأجلَّة بمعنى: مجازيكم، فيتضمَّنُ الوعدَ والوعيدَ.

وجعله الزمخشريُّ بمعنى: معاقبكم، ثم جوَّزَ هذا الوجه[1]. وتُعقِّبَ بأنه يَرد عليه أنه ليس لمجرَّد الوعيد، بل للحثِّ، كيف لا والوعيدُ قد تمَّ بقوله تعالى: «لتنبؤن بما عملتم» فلم يحسُنْ جعلُهُ بمعنى معاقبكم، فتدبَّر.

وجوّزَ كونه منصوباً بإضمار: اذكر، مقدَّراً، وتُعقِّبَ بأنه وإن كان حَسَناً، إلا أنه حَذْفٌ لا قرينةَ ظاهرة عليه. وجُوِّزَ كونه ظرفاً لمحذوفٍ بقرينة السياق، أي: يكون من الأحوال والأهوال ما لا يُحيطُ به نطاقُ المقال يوم يجمعكم. وتُعقِّبَ بأنَّ فيه ارتكابَ حذفٍ لا يحتاج إليه، فالأرجحُ الوجه الأول.

وقرئ: «يَجْمَعْكُمْ» بسكون العين[2]، وقد يُسكَّنُ الفعلُ المضارعُ المرفوعُ مع ضمير جمع المخاطَبين المنصوب، وروي إشمامُها الضَّمَّ[3].

---

(١) في الكشاف ٤/ ١١٥: فإن قلتَ: بم انتصب الظرف؟ قلتُ: بقوله: «لتنبَّؤنَّ»، أو بـ «خبير» لِمَا فيه من معنى الوعيد، كأنه قيل: والله معاقبكم يوم يجمعكم. أو بإضمار: اذكر.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٩، والبحر ٨/ ٢٧٨.

(٣) المصدران السابقان.

وقرأ سلامٌ ويعقوب وزيد بن عليٍّ والشعبيُّ: «نجمعكم» بالنون[1].

﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ ليوم يُجمَعُ فيه الأولون والآخرون، وقيل: الملائكةُ عليهم السلام والثقلان، وقيل غير ذلك، والأول أظهر. واللام قيل: للتعليل، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أي: لأجل ما في يوم الجمع من الحساب، وقيل: بمعنى «في» فلا تقدير.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنهم قالوا: يومٌ غَبَنَ فيه أهلُ الجنة أهلَ النار[2]. فالتفاعلُ فيه ليس على ظاهره، كما في التواضع والتحامل، لوقوعه من جانبٍ واحد، واختير للمبالغة، وإلى هذا ذهب الواحديُّ.

وقال غير واحد: أي: يومٌ غَبَنَ فيه بعضُ الناس بعضاً بنزول السُّعداء منازلَ الأشقياء لو كانوا سُعداء، وبالعكس، ففي الصحيح: «ما من عبدٍ يدخلُ الجنةَ إلا أُريَ مقعدَهُ من النار لو أساءَ؛ ليزدادَ شكراً، وما من عبدٍ يدخلُ النارَ إلا أُريَ مقعدَهُ من الجنة لو أحسن؛ ليزدادَ حَسْرةً»[3]، وهو مستعارٌ من تغابُنِ القوم في التجارة، وفيه تهكُّمٌ بالأشقياء؛ لأنهم لا يَغبُنونَ حقيقةً السعداءَ بنزولهم في منازلهم من النار، أو جُعل ذلك تغابناً مبالغة على طريق المشاكلة، فالتفاعلُ على هذا القول على ظاهره، وهو حَسَنٌ، إلا أنَّ التغابنَ فيه تغابنُ السعداء والأشقياء على التقابل، والأحسنُ الإطلاق، وتغابن السعداء على الزيادة ثبت في الصحاح، واختار ذلك محيي السنة[4] حيث قال: التغابنُ تفاعُلٌ من الغَبْن، وهو فوتُ الحظِّ، والمراد بالمغبون مَنْ غُبِنَ في أهله ومنازله في الجنة، فيظهرُ يومئذٍ غَبْنُ كلِّ كافرٍ بتَرْك الإيمان، وغَبْنُ كلِّ مؤمنٍ بتقصيره في الإحسان.

قال الطيبيُّ: وعلى هذا الراغبُ حيث قال: الغَبْنُ: أن تبخسَ صاحبَكَ في

---

(١) النشر ٢/ ٣٨٨ عن يعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٢٧٨.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٢٧.

(٣) صحيح البخاري (٦٥٦٩)، وأخرجه أحمد (١٠٩٨٠)، وهو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) وهو البغوي في تفسيره ٤/ ٣٥٣.

معاملةٍ بينك وبينه بضَرْبٍ من الإخفاء، فإنْ كان ذلك في مالٍ يقال: غُبِنَ فلانٌ، بضمِّ الغين وكَسْر الباء. وإن كان في رأي يقال: غَبِنَ، بفتح الغين وكسر الباء. ويوم التغابن: يومُ القيامة؛ لظهور الغَبْنِ في المبايعة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] فعلم أنهم قد غُبنوا فيما تركوا من المبايعة، وفيما تعاطوه من ذلك جميعاً[1]. انتهى.

والجملةُ مبتدأٌ وخبرٌ، والتعريفُ للجنس، وفيها دلالةٌ على استعظام ذلك اليوم، وأنَّ تغابُنَهُ هو التغابنُ في الحقيقة، لا التغابنُ في أمور الدنيا وإن جَلَّتْ وعَظُمَتْ.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا﴾ أي: عملاً صالحاً ﴿يُكَفِّرْ﴾ أي: الله تعالى ﴿عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ في ذلك اليوم ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: مُقدَّرين الخلود فيها، والجمعُ باعتبار معنى «مَن» كما أنَّ الإفراد باعتبار لفظه.

وقرأ الأعرجُ وشيبةُ وأبو جعفر وطلحةُ ونافعٌ وابن عامر، والمفضل عن عاصم، وزيد بن عليٍّ، والحسن بخلافٍ عنه: «نُكفِّر» و«نُدخله» بنون العَظَمة فيهما[2].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكِرَ من تكفير السيئاتِ وإدخال الجنات ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾ الذي لا فوزَ وراءه؛ لانطوائه على النجاة من أعظم الهلكات، والظفر بأَجلِّ الطلبات.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾ أي: النارُ. وكأنَّ هذه الآية والتي قبلها ـ لاحتوائهما على منازل السعداء والأشقياء ـ بيانٌ للتغابن على تفسيره بتغابُنِ الفريقين على التقابل، ولِمَا فيه من التفصيل نُزِّلَ منزلةَ المغاير، فعُطِفَ بالواو. وكذا على الإطلاق، لكنه عليه بيانٌ في الجملة.

---

(١) مفردات الراغب (غبن).

(٢) التيسير ص٢١١، والنشر ٢/ ٢٤٨ عن نافع وابن عامر وأبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٢٧٨.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ أي: ما أصاب أحداً مصيبةٌ، على أنَّ المفعول محذوفٌ، و«من» زائدةٌ، و«مصيبة» فاعلٌ، وعدمُ إلحاق التاء في مثل ذلك فصيحٌ، لكنَّ الإلحاقَ أكثرُ، كقوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ [الحجر: ٥]، ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ [الأنعام: ٤].

والمراد بالمصيبة: الرَّزِيَّة وما يسوءُ العبدَ في نفسٍ، أو مالٍ، أو ولدٍ، أو قولٍ، أو فعلٍ، أي: ما أصابَ أحداً من رزايا الدنيا أيَّ رزيةٍ كانت ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإرادته سبحانه وتمكينه عزَّ وجلَّ، كأنَّ الرَّزِيَّةَ بذاتها متوجِّهةٌ إلى العبد، متوقِّفةٌ على إرادته تعالى وتمكينه جلَّ وعلا. وجُوِّزَ أن يُراد بالمصيبة: الحادثةُ من شَرٍّ أو خير، وقد نصُّوا على أنها تستعملُ فيما يصيبُ العبدَ من الخير، وفيما يصيبه من الشَّرِّ، لكن قيل: إنها في الأول من الصَّوب، أي: المطر، وفي الثاني من إصابة السهم، والأولُ هو الظاهر، وإن كان الحُكْمُ بالتوقف على الإذن عامًّا.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ عند إصابتها للصبر والاسترجاع على ما قيل، وعن علقمةَ: للعلم بأنها من عند الله تعالى، فيسلِّم لأمر الله تعالى ويرضى بها. وعن ابن مسعود قريبٌ منه. وقال ابن عباس: «يهدِ قلبه» لليقين، فيعلمُ أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وقيل: «يَهدِ قلبه»، أي: يَلْطُفْ به ويشرحُهُ لازدياد الخير والطاعة.

وقرأ ابن جبير وطلحة وابن هرمز والأزرق عن حمزة: «نَهْدِ» بنون العظمة(١).

وقرأ السُّلَميُّ والضحاكُ وأبو جعفر: «يُهْدَ» بالياء مبنيًّا للمفعول «قلبُهُ» بالرفع على النيابة عن الفاعل(٢)، وقرئ كذلك لكن بنصب «قلبَه»(٣)، وخُرِّجَ على أنَّ نائبَ الفاعل ضمير «مَن»، و«قلبَهُ» منصوبٌ بنزع الخافض، أي: يُهْدَ في قلبه، أو يُهْدَ إلى قلبه، على معنى أنَّ الكافرَ ضالٌّ عن قلبه بعيدٌ منه، والمؤمنَ واجدٌ له مهتدٍ إليه

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٣١٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٨.

(٢) الكشاف ٤/ ١١٥، والبحر ٨/ ٢٧٩.

(٣) الكشاف ٤/ ١١٥، وتفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٨/ ٢٠٣.

كقوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] فالكلام من الحذف والإيصال نحو: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وفيه جَعْلُ القلب بمنزلة المقصد، فمن ضَلَّ فقد مُنِعَ منه، ومن وَصَلَ فقد هُدي إليه. وجُوِّزَ أن يكون نصبُهُ على التمييز بناءً على أنه يجوز تعريفه.

وقرأ عكرمة وعمرو بن دينار ومالك بن دينار: «يَهْدَأْ» بهمزةٍ ساكنةٍ «قلبُهُ» بالرفع[1]، أي: يطمئنُّ قلبه ويسكنُ بالإيمان، ولا يكونُ فيه قلقٌ واضطراب.

وقرأ عمرو بن فائد: «يَهْدَا» بألف بدلاً من الهمزة الساكنة[2]، وعكرمة ومالك بن دينار أيضاً: «يَهْدَ» بحذف الألف بعد إبدالها من الهمزة[3]، وإبدالُ الهمزة في مثل ذلك ليس بقياسٍ على ما قال أبو حيان[4]، وأجاز ذلك بعضُهم قياساً، وبنى عليه جوازَ حَذْفِ تلك الألف للجازم، وخُرِّجَ عليه قول زهير بن أبي سلمى[5]:

جريءٍ متى يُظْلَمْ يُعاقِبْ بظُلْمِهِ سريعاً وإن لا يُبْدَ بالظُّلم يَظْلِمِ

أصله: يبدأ، فأُبدلتِ الهمزةُ ألفاً، ثم حُذفتْ للجازم تشبيهاً بألف «يخشى» إذا دخل عليه الجازم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها القلوبُ وأحوالُها ﴿عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ فيعلمُ إيمانَ المؤمن، ويهدي قلبه عند إصابة المصيبة، فالجملةُ متعلِّقةٌ بقوله تعالى: «ومن يؤمن» إلخ، وجُوِّز أن تكونَ متعلِّقةً بقوله سبحانه: «ما أصاب» إلخ، على أنها تذييلٌ له للتقرير والتأكيد.

وذكر الطيبيُّ أنَّ في كلام «الكشاف» رمزاً إلى أنَّ في الآية حَذْفاً، أي: فمَن لم يؤمن لم يلطف به، أو لم يَهْدِ قلبه، ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبه. وبنى عليه أنَّ المصيبة

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٢٣، والمحرر ٥/ ٣١٩-٣٢٠، والبحر ٨/ ٢٧٩.
(٢) القراءات الشاذة ص١٥٧. وتصحف فائد في الأصل و(م) إلى: قائد.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٧٩.
(٤) في البحر ٨/ ٢٧٩.
(٥) البيت في ديوانه ص٢٤.

تشملُ الكفرَ والمعاصي أيضاً؛ لورودها عَقيبَ جزاء المؤمن والكافر، وإردافها بالأمر الآتي، وأيُّ مصيبةٍ أعظمُ منهما؟ وهو كما أشار إليه يدفع في نَحْرِ المعتزلة.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ كرر الأمر للتأكيد والإيذانِ بالفرق بين الإطاعتين في الكيفية، وتوضيحِ مورد التولِّي في قولهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن إطاعة الرسول، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ تعليلٌ للجواب المحذوف أُقيم مقامه، أي: فلا بأس عليه؛ إذ ما عليه إلا التبليغُ المبينُ، وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه، وإظهارُ الرسول مضافاً إلى نون العظمة في مقام إضماره؛ لتشريفه عليه الصلاة والسلام، والإشعارِ بمدار الحكم الذي هو كونُ وظيفته ﷺ محضَ البلاغ، ولزيادة تشنيع التولِّي عنه، والحصرُ في الكلام إضافيٌّ.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الكلامُ فيها كالكلام في كلمة التوحيد، وقد مرَّ وحلا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: عليه تعالى خاصةً دون غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ وإظهارُ الجلالة في موقع الإضمار؛ للإشعار بعلَّةِ التوكُّل، أو الأمرِ به، فإنَّ الألوهية مقتضيةٌ للتبتُّلِ إليه تعالى بالكلية، وقَطْعِ التعلُّق بالمرَّة عمَّا سواه من البَرِيَّة.

وذكر بعضُ الأَجِلَّة أنَّ تخصيصَ المؤمنين بالأمر بالتوكُّل؛ لأنَّ الإيمانَ بأنَّ الكلَّ منه تعالى يقتضي التوكُّل، ومن هنا قيل: ليس في الآيات لمن تأمَّلَ في الحثِّ على التوكُّلِ أعظمُ من هذه الآية لإيمائها إلى أنَّ مَنْ لا يتوكَّل على الله تعالى ليس بمؤمن، وهي على ما قال الطيبيُّ: كالخاتمة والفَذْلكة لما تقدم، وكالمخلص إلى مَشْرع آخر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ أي: إنَّ بعضَهم كذلك، فمِنَ الأزواج أزواجاً يُعادِينَ بعولتهنَّ، ويخاصمنهم ويجلبنَ عليهم، ومن الأولاد أولاداً يُعادون آباءهم، ويعقُّونهم ويُجرِّعونهم الغُصَص والأذى، وقد شاهدنا من الأزواج من قتلتْ زوجَها، ومن أفسدتْ عقلَهُ بإطعام بعض المفسدات للعقل، ومن كَسَرَتْ قارورةَ عِرْضه، ومن مزَّقتْ كيسَ ماله، ومَن ومَن، وكذا من الأولاد مَنْ فعلَ نحو ذلك ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ أي: كونوا منهم على حَذَرٍ، ولا تأمنوا

غوائلهم وشرَّهم، والضميرُ للعدوِّ، فإنه يُطلَقُ على الجمع نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧] فالمأمورُ به الحذرُ عن الكلِّ، أو للأزواج والأولاد جميعاً، فالمأمورُ به إما الحذرُ عن البعض؛ لأنَّ منهم مَنْ ليس بعدوٍّ، وإما الحذرُ عن مجموع الفريقين؛ لاشتمالهم على العدو.

﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو، بأن تكونَ متعلِّقةً بأمور الدنيا، أو بأمور الدين لكنْ مقارِنة للتوبة، بأن لم تعاقبوهم عليها ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ تُعرِضوا بترك التثريب والتعيير ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ تستروها بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٤﴾ قائمٌ مقامَ الجواب، والمرادُ: يُعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضَّلُ عليكم، فإنه عزَّ وجلَّ غفورٌ رحيمٌ، ولَمَّا كان التكليفُ هاهنا شاقًّا؛ لأنَّ الأذى الصادرَ ممن أحسنتَ إليه أشدُّ نكايةً وأبعثُ على الانتقام، ناسَبَ التأكيدَ في قوله سبحانه: «وإن تعفوا» إلخ.

وقال غيرُ واحدٍ: إنَّ عداوتَهم من حيثُ إنهم يَحولون بينهم وبين الطاعات والأمور النافعة لهم في آخرتهم، وقد يحملونهم على السعي في اكتساب الحرام وارتكاب الآثام لمنفعة أنفسهم، كما روي عنه ﷺ: «يأتي زمانٌ على أمتي، يكون فيه هلاكُ الرجل على يدِ زوجه وولده، يُعيِّرانه بالفقر، فيركب مراكبَ السُّوء، فيهلك»(١). ومن الناس من يحمله حُبُّهم والشفقةُ عليهم على أن يكونوا في عيشٍ رَغدٍ في حياته وبعد مماته، فيرتكبُ المحظورات لتحصيل ما يكون سبباً لذلك وإن لم يطلبوه منه، فيهلك.

وسببُ النزول أوفقُ بهذا القول، أخرج الترمذيُّ والحاكم وصححاه، وابن جرير وغيرهم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ إلخ، في قومٍ من أهل مكة، أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبيَّ ﷺ، فأبى أزواجُهم وأولادهم أن يَدَعوهم، فلما أتوا رسولَ الله ﷺ فرأوا الناسَ قد فَقُهوا في الدين، همُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى الآية(٢).

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٤٣٩).
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٢٧-٢٢٨، والترمذي (٣٣١٧)، والحاكم ٢/ ٤٩٠، وتفسير الطبري ٢٣/ ١٤.

وفي روايةٍ أخرى عنه أنه قال: كان الرجلُ يُريدُ الهجرةَ فيحبسه امرأته وولده فيقول: أما واللهِ لئن جَمَعَ الله تعالى بيني وبينكم في دار الهجرة لأفعلنَّ ولأفعلنَّ، فجمعَ الله عزَّ وجلَّ بينهم في دار الهجرة، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ الآية(١).

وقيل: إنهم قالوا لهم: لئن جمعنا الله تعالى في دار الهجرة لم نُصِبْكم بخيرٍ، فلما هاجروا منعوهم الخير. فنزلت.

وعن عطاء بن أبي رباح أنَّ عوفَ بن مالك الأشجعيَّ أراد الغزو مع النبيِّ ﷺ، فاجتمعَ أهلُهُ وأولاده فثبَّطوه وشكوا إليه فِراقه، فَرَقَّ ولم يَغْزُ، ثم إنه نَدِمَ، فهمَّ بمعاقبتهم، فنزلت(٢).

واستدلَّ بها على أنه لا ينبغي للرجل أن يحقِدَ على زوجه وولده إذا جَنَوا معه جنايةً، وأن لا يدعوَ عليهم.

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاءٌ ومحنةٌ؛ لأنهم يترتَّبُ عليهم الوقوعُ في الإثم والشدائد الدنيوية وغير ذلك، وفي الحديث: «يُؤتَى برجلٍ يومَ القيامة فيقال: أَكَلَ عيالُهُ حسناته»(٣)، وعن بعض السلف: العيال سُوسُ الطاعات.

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه والحاكم وصححه عن بريدة قال: كان النبيُّ ﷺ يخطُبُ، فأقبلَ الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويَعْثُران، فنزلَ رسولُ الله عليه الصلاة والسلام من المنبر، فحملهما واحداً من ذا الشَّقِّ، وواحداً من ذا الشَّقِّ، ثم صَعِدَ المنبرَ فقال: «صَدَقَ الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ إني لَمَّا نظرتُ إلى هذين الغلامين

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢٨، وعزاها لعبد بن حميد وابن مردويه، وأخرجها أيضاً ابن جرير ٢٣/ ١٤.
(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٥، وعزاه في الدر المنثور ٦/ ٢٢٧ إلى ابن جرير وابن إسحاق.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العيال (٤٥١)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ١/ ٩٣، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٨١ عن سفيان الثوري. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٧٣: لم أره مرفوعاً.

يمشيان ويَعثُران، لم أَصبرْ أن قطعتُ كلامي ونزلت إليهما»(١).

وفي رواية ابن مردويه(٢) عن عبد الله بن عمر أنَّ رسولَ الله ﷺ بينما هو يخطبُ الناسَ على المنبر، خرجَ حسينُ بن عليٍّ على رسول الله وعليهما الصلاة والسلام، فَوَطِئَ في ثوبٍ كان عليه، فسقط فبكى، فنزل رسولُ الله ﷺ عن المنبر، فلما رآه الناسُ سَعوا إلى حسين يتعاطونه، يُعطيه بعضُهم بعضاً، حتى وَقَعَ في يد رسول الله ﷺ، فقال: «قاتلَ الله الشيطانَ، إن الولدَ لفتنةٌ، والذي نفسي بيده ما دريتُ أني نزلتُ عن منبري»(٣).

وقيل: إذا أمكنكم الجهادُ والهجرةُ فلا يَفْتِنْكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما. قال في «الكشف»: الفتنةُ على هذا: الميلُ إلى الأموال والأولاد دونَ العقوبة والإثم.

وقُدِّمت الأموال قيل: لأنها أعظمُ فتنةً ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦-٧]، وأخرج أحمد والطبرانيُّ والحاكم والترمذيُّ وصحَّحه عن كعب بن عياض، سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ لكلِّ أمةٍ فتنةً، وإنَّ فتنةَ أُمَّتي المال»(٤).

وأخرج نحوه ابن مردويه عن عبد الله بن [أبي] أوفى مرفوعاً(٥).

وكأنه لِغَلَبةِ الفتنةِ في الأموال والأولاد لم تُذْكَر «من» التبعيضيَّة كما ذُكِرتْ فيما تقدَّم.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢٨، وأحمد (٢٢٩٩٥)، وأبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٧٧٤)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١٠٨، وابن ماجه (٣٦٠٠)، والحاكم ١/ ٢٨٧ و٤/ ١٨٩.

(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٢٨.

(٣) جاء في هامش الأصل: ليت شعري لو رأى رسول الله ﷺ حال الحسين ـ على جده وعليه الصلاة والسلام ـ في واقعة كربلاء ماذا كان يصنع؟! فلعنة الله تعالى وملائكته ورسله والناس أجمعين على مَن أمر بما كان، ومَن أَلْجَمَ وأَسْرَجَ أو رضي أو كثَّر سواداً.

(٤) أحمد (١٧٤٧١)، والطبراني في الكبير ١٩/ ١٧٩ (٤٠٤)، وفي الأوسط (٣٣١٩)، وفي مسند الشاميين (٢٠٢٧)، والحاكم ٤/ ٣١٨، والترمذي (٢٣٣٦).

(٥) الدر المنثور ٦/ ٢٢٨، وما بين حاصرتين منه.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ لمن آثرَ محبَّةَ الله تعالى وطاعته على محبَّة الأموال والأولاد، والسعي في مصالحهم على وجهٍ يُخِلُّ بذلك.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي: ابذلوا في تقواه عزَّ وجلَّ جهدكم وطاقتكم كما أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن أنس(١)، وحكي عن أبي العالية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] اشتدَّ على القوم العمل، فقاموا حتى وَرِمَتْ عَراقيبهم، وتقرَّحتْ جباههم، فأنزل الله تعالى تخفيفاً على المسلمين: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ فنسخت الآيةَ الأولى(٢). وجاء عن قتادة نحوٌ منه، وعن مجاهد: المراد أن يُطاعَ سبحانه فلا يعصى. والكثيرُ على أنَّ هذا هو المرادُ في الآية التي ذكرناها.

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ مواعظه تعالى ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أوامره عزَّ وجلَّ ونواهيه سبحانه ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ مما رزقكم في الوجوه التي أمركم بالإنفاق فيها خالصاً لوجهه جلَّ شأنه، كما يُؤذن به قوله تعالى: ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ وذِكْرُ ذلك تخصيصٌ بعد تعميم.

ونَصْبُ «خيراً» عند سيبويه على أنه مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ، أي: وأْتُوا خيراً لأنفسكم(٣)، أي: افعلوا ما هو خيرٌ لها وأنفع، وهذا تأكيدٌ للحَثِّ على امتثال هذه الأوامر وبيانٌ لكون الأمور خيراً لأنفسهم من الأموال والأولاد، وفيه شَمَّةٌ من التجريد، وعند أبي عبيد(٤) على أنه خبرٌ لـ «يكن» مقدَّراً جواباً للأمر، أي: يكن خيراً، وعند الفراء والكسائي على أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إنفاقاً خيراً.

وقيل: هو نصب بـ «أنفقوا»، والخير: المال. وفيه بُعْدٌ من حيثُ المعنى.

وقال بعض الكوفيين: هو نَصْبٌ على الحال، وهو بعيدٌ في المعنى والإعراب.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) جاء في هامش الأصل: لأن السوابق كلها من إتيان الخير.

(٤) كذا في الأصل و(م). ولعله أبو عبيدة، ينظر مجاز القرآن ١/ ١٤٣، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٤.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ وهو البخل مع الحرص ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٦﴾ الفائزون بكلِّ مرام.

﴿إِن تُقْرِضُوا ٱللَّهَ﴾ تصرفوا المالَ إلى المصارف التي عيَّنها عزَّ وجلَّ، وفي الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مقروناً بالإخلاص وطِيب النفس ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ يجعلْ لكم جلَّ شأنه بالواحد عَشْراً إلى سبع مئةٍ وأكثر، وقرئ: يُضَعِّفْهُ[1] ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببركة الإنفاق ما فرط منكم من بعض الذنوب ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يُعطي الجزيلَ بمقابلة النَّزْر القليل ﴿حَلِيمٌ ١٧﴾ لا يُعاجل بالعقوبة مع كثرة الذنوب.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لا يخفى عليه سبحانه شيءٌ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾ المبالغ في القدرة والحكمة، وفي الآية من الترغيب بالإنفاق ما فيها، لكن اختلف في المراد به فقيل: الإنفاقُ المفروضُ، يعني الزكاة المفروضة، وقد صُرِّح به، وقيل: الإنفاق المندوب، وقيل: ما يعمُّ الكلَّ، والله تعالى أعلم.

(١) بالتشديد قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب، ينظر التيسير ص٨١، والنشر ٢/٢٢٨.